(مثالية الجوع في حياة عرب الجاهلية)

دراسة موضوعية

كتبه

د. أحمد محمد علي الجريوع

أستاذ الأدب المساعد في قسم اللغة العربية وآدابها

بجامعة جازان

تأتي هذه الدراسة تحت عنوان:" (مثالية الجوع في حياة عرب الجاهلية) قراءة في الشعر الجاهلي

كتبه

د. أحمد محمد علي الجربوع

أستاذ الأدب المساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة جازان

الملخص:

لتنظر في مثالية الجائع، أو مثالية الجوع في العصر الجاهلي، كما صورها الشعراء في ذلك العصر؛ إذ إن الجوع من المشاكل الاجتماعية الخطيرةالتي تودي بحياة البشر، وتقودهم إلى الهلاك، إذا لم يجابه خطره ويرد بأسه. وهو قديم قِدم الإنسان نفسه، ولم تكد تسلم منه أمة، ولا شعب، منذ أن خلق الله الأرض، وحتى يومنا هذا.

ومن ينعم النظر في الأدب العربي في العصر الجاهلي، ويحاول جمع أشتات الصورة للجوع يجد مثالية واضحة اعترت هذه الظاهرة، حاول من خلالها كثير من الشعراء إبراز مثاليتهم بألوان متنوعة، وأساليب عديدة، حتى تحققت هذه المثالية كما سنعرف من خلال شعر الجوع الذي قاله شعراء العصر الجاهلي.

ولعل هذه الدراسة تنضمّ إلى ركب الدراسات العديدة التي تثبت شرف العرب، وعزهم، وسمت بهم إلى ذرا المجد وقمم الشرف.

ومن أهم ما خلصت إليه أن الجاهليين خلصوا في تعاطيهم لموضوع الجوع إلى أمر مهم، نراه لب هذا البحث ولبابه، وهو الوصول لغور بعيد في أعماق

النفس الإنسانية التي ميزت بعقلية متميزة فريدة بين الجوع وما يتبعه من هزال ونحافة، وبين البطنة وما يلحقها من قبح و ذمامة، فنفوها وما ينشأ عنها من قبيح القول والعمل عنهم، وذموها في أعرافهم وتقاليدهم، وحببوا إلى أنفسهم الجوع ونواتجه، لرؤيتهم ما ينتجه من مثل وقيم تسهم في إصلاح نفوسهم ومجتمعاتهم.

كلمات مفتاحية:

مثالية ـ الجوع ـ الشعر الجاهلي ـ حياة العرب الجاهلية ـ البطنة والنحافة.

This study comes under the title: "(Ideal for Hunger in the Life of the Arabs of Jahiliyah)

wrote it

Dr. Ahmed Mohammed Ali Al-Jarboua

Assistant Professor of Literature in the Department of Arabic Language and Literature at Jazan University

Abstract:

Reading in pre-Islamic poetryTo look at the ideal of the hungry, or the ideal of hunger in the pre-Islamic era, as portrayed by the poets of that era. Hunger is one of the serious social problems that kill people and lead them to perish if they do not face the danger and respond to it. It is an old man himself, and has never received a nation, nor a people, since God created the earth, and even today.

It is a good example of this phenomenon, in which many poets tried to highlight their ideal in a variety of colors and styles, until this idealism was achieved, as we will know through the poetry of hunger, which the poets of the age Jahili.

Perhaps this study joins the many studies that prove the honor of the Arabs, and their pride, and called them to the glory and glory.

One of the most important conclusion is that the ignorant people have concluded in their use of the subject of hunger to be an important matter. We see this research as the core of this research, which is to reach a distant gulf in the depths of the human soul, which is distinguished by a unique unique mentality between hunger and the following. And the consequences of the ugly to say and work on them, and their endowment in their customs and

traditions, and they felt themselves hungry and its products, to see them produced by the ideals and values that contribute to the reform of their souls and their communities.

Keywords:

Perfect. Hunger. Pre-Islamic Poetry. The life of the ignorant Arabs. Belly and thin.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين الواحد الأحد الفرد الصمد، نحمده تعالى ونشكره على ما له علينا من صنوف الإحسان التي لا يقدر على عدها أو حصرها إنس ولا جان. وبعد:

يعد الجوع من المشاكل الاجتماعية الخطيرة، التي تودي بحياة البشر، وتقودهم إلى الهلاك، إذا لم يجابه خطره ويرد بأسه. وهو قديم قِدم الإنسان نفسه، ولم تكد تسلم منه أمة، ولا شعب، منذ أن خلق الله الأرض، وحتى يومنا هذا.

ولعل جميع الأجناس البشرية ذاقت ويلاته، وعانت مرارته.ومنذ أن وَجَدَ الإنسان نفسه في الأرض ولا هم له سوى دفع الجوع، ومكافحته بشتى الوسائل البدائية التي أحاط بها علمًا، وأمكنته عقليته البسيطة من إدراكها، وأعانته بها بيئته.

وفي نصوص الشريعة من القرآن والسنة –وهي أصدق الحديث– وأخبار العرب وأشعارهم دلائل كثيرة على صدق وقوعه قبل العصر الجاهلي بأزمان مديدة وصولًا إلى العصر الجاهلي، وفي عصور الإسلام الزاهرة، وما تبعهما من عصور.

فالجوع مترسخ في الحياة العربية لصيق بها، وملازم لها، عانى منه العرب كغيرهم من الأمم، أجهدهم سنيًنا، وأمنوا منه أخرى، ولهم مع هذه الظاهرة أحداث جسام ألقت بظلالها على المجتمع والفرد، فأثرت في الحياة، والقيم، والعادات.

مشكلة الدراسة:

تأتي هذه الدراسة لتنظر في مشكلة أساسية هي الجوع، وخطره على الأفراد والمجتمع في العصر الجاهلي، وكيف أثر في حياة العرب، وذلك من خلال طرح الأسئلة التالية:

١-هل كان الجوع موجهًا أخلاقيًا للعرب في العصر الجاهلي؟

٢- هل أفرز الجوع قيمًا تَمثَّلها العربي فأصبحت سجايًا حميدة يعتز بها ولا يرضى بتدنيسها؟

٣- هل فرضت البيئة الجوع على الجاهلي، أم هو اختار أن يجوع؟

منهج الدراسة:

أما منهج الدراسة فهو منهج وصفي تحليلي، قام على جمع المادة من أشعار العرب وأخبارهم، والتي تناولت ظاهرة الجوع في العصر الجاهلي، ثم وصفها وحللها تحليلًا يكشف عن دلائل التعبير الشعري لهذه المشكلة، وأثره على الفرد والمجتمع.

الجوع لغة واصطلاحًا:

جاء في لسان ابن منظور تحت مادة "جوع"، الجوع: اسم للمَخْمَصةِ، وهو نقيض الشبع، والفعل جَاعَ يَجُوعُ جَوْعًا وجَوْعَةً ومَجَاعَةً، فهو جَائِعٌ، وجَوْعَانُ، والمرأة جَوْعَى، والجمع جَوْعَى وجِيَاعٌ وجُوَّعٌ وجُيَّعٌ[١].

وعلى هذا التعريف معظم المعاجم العربية كالقاموس المحيط، ومختار الصحاح، والمخصص، وهو كما يظهر تعريف بالضد، فإذا بحثنا

(١) لسان العرب، مادة (ج و ع).

عن تعريف لهذا الضد وجدنا تفسيره بضده أيضًا، فمادة "شبع" في مختار الصحاح تعرف لغويًا بأنها ضد الجوع[١]. ورغم وضوح اللفظ وسهولة تعريفه اكتفى كثير من أهل اللغة بتمييزه بضده، والأشياء تتمايز بأضدادها، وتشترك مع غيرها في تأدية المعنى المراد.

وللجوع مرادفات كثيرة في كتب اللغة منها ما ذكره أبو هلال العسكري في التلخيص في معرفة أسماء الأشياء حيث قال: «هو الجوع، والغَرَثُ والسَّغَبُ والطَّوَى ... والخَمْصُ الجوع»[٢]، وأكثر من ذلك ما نجده في المخصص لابن سيده الأندلسي[٣]، على أن ما ذكره أبو هلال أكثر شهرة وتداولًا لمرادفات الجوع، وفي هذه المرادفات نجد تعريفًا أكثر دقة للجوع، فمادة"خمص"في اللسان جاء فيها«والخَمْصُ والخَمَصُ والمَخْمَصَة: الجوع، وهو خلاء البطن من الطعام»[٤]. هذا هو التعريف اللغوي الدقيق للجوع، وإن كان لا يخفى على أحد، إلا أن إثباته لا مناص منه.

---

(١) مختار الصحاح، مادة (ش ب ع).

(٢) التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، لأبي هلال العسكري، تحقيق: د. عزة حسن، طبعة دار طلاس، ط٢، ١٩٩٦م، ص ٩٣.

(٣) المخصص، لابن سيده الأندلسي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م: ١ / ٤٥٢.

(٤) لسان العرب، مادة (خ م ص).

أما في الاصطلاح فله تعريفات عدة، منها تعريف التهانوي له بقوله: «الجوع هو أن لا يملك صاحبه بطنه إذا جاع وإذا تأخر عنه الطعام غشي عليه وسقطت قوته»[١].

ويعرفه جوزيه دي كاسترو بقوله: «هو العجز التام الناشئ عن نقص الطعام وهو ما يسمى بالتضور» ويؤكد من خلال دراسته عن الجوع أن الموت خاتمة طريق الجوع، ونتيجته المحتومة إذا لم يُتَدارك، ويعجل في حل أزمته[٢].

ومن يتأمل بعد هذا بعض معاني الجوع يجد قوة اقترانها بما ينجم عنه، ويترتب عليه من آثار على الأفراد، والجماعات، ينجم عنها ما يعرف بالمجاعات، وهي كوارث تصيب الأمم قديمًا وحديثًا، فتأثر على مناحي الحياة كافة.

أما عن سبب اختيارنا لمفردة الجوع دون غيرها من المرادفات، فلأن هذه المرادفات، أو بعضها تعرف على أنها درجة من درجات الجوع، فالسغب هو الجوع مع التعب[٣]، والغرث: أيسر الجوع، وقيل شدته[٤].

ومنها ما يدل على الشكل، وما يخلفه الجوع من أثر على الجسد، كالخَمَص الذي هو ضمور البطن من الجوع[١]، فكل هذه المرادفات وإن دلت

---

(١) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي، تحقيق: د. علي دحروج، طبعة مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ٦٠١/١.

(٢) جغرافية الجوع، لجوزيه دي كاسترو، ترجمة: زكي الرشيدي، طبعة دار الهلال، ص ٢٦ وما بعدها.

(٣) لسان العرب، مادة (س غ ب).

(٤) السابق، مادة (غ ر ث).

على المعنى، إلا أنها تندرج تحت معنى الجوع الأساسي. أما السبب الآخر لاختيارنا لفظة الجوع، فلكثرة دورانها في الشعر أكثر من باقي المفردات، مع وجود استخدام قليل لغيرها في بعض الأبيات التي جمعناها وتحدثت عن الجوع.

أما المثالية التي نبحث عنها في شعر الجوع، وننشدها لعرب الجاهلية، فمعناها في هذا البحث تلك القيم الأخلاقية التي اكتسبها الجاهلي من الجوع، وحاول من خلالها أن يصبح نموذجًا أمثل في عصره، وبين أقرانه، حتى أضحت هذه القيم قوالب شعرية يستخدمها الشاعر في نظمه للأغراض الشعرية المختلفة.

والحق أن ما نريد دراسته من الجوع وسط بين فقدان القوة والموت المحتم، فهو وسط بين تعريف التهانوي ومعنى دي كاسترو، وفيه نعرف الجوع على أنه الحاجة إلى الطعام بشكل يؤثر على سلوكيات الأفراد في المجتمع. فالجوع قديمًا وحديثًا من أسباب الحروب، والسرقة والبغاء، وقديمًا بوجه خاص من أسباب الوأد عند الجاهليين، إلا أن له أوجهًا عديدة مشرقة في الثقافة العربية القديمة هي مدار بحثنا في هذه الدراسة للمثل والفضائل العربية التي اختلقها العربي من نظرته للجوع والجائعين في بيئته.

(١) القاموس المحيط، مادة (خ م ص).

التمهيد

إن الحديث عن ظاهرة اجتماعية موجودة في بيئة من البيئات، أو عند أمة من الأمم في صقع من الأصقاع، يقودنا إلى الحديث عن جغرافية تلك البيئة، إذ نجد عرا وثيقة بين بعض هذه الظواهر وبين الطبيعة الجغرافية التي نشأت فيها هذه الظاهرة أو تلك، بل إن الجغرافية بدورها تسهم إلى حد كبير في خلق الظاهرة ونموها، أو موتها وانحسارها.

إن بيئتنا اليوم في حاضرنا الذي نعيشه، ومع ما يحيط بنا من مقومات طبيعية خلقها الله سبحانه وتعالى، تدل دلالة واضحة على أثر العامل الجغرافي والمحيط الطبيعي بمن يعيش فيه من أفراد. إن تعاملًا بسيطًا مع سكان منطقة ساحلية، يكشف لنا فروقًا جوهرية بينه وبين التعامل مع سكان المناطق الصحراوية. فأهل الساحل أرحب صدرًا ، ويسهل التفاهم معهم، في حين نجد أهل الصحراء أكثر خشونة وفضاضة، ولا يقبلون نقاشًا. فالفرق بينهم ليس بالشخص، وإنما بالعيش في عوامل بيئية مختلفة أثرت بمكوناتها المتنوعة والمتباينة على كل منهما. وكذلك الحال لو نظرت لأهل الجبال، وسكان الغابات، ومن يعيش في المناطق المتجمدة، ستجد فروقًا في الطبائع والعادات وطرائق العيش والعقلية التي تعمل البيئة الطبيعية وما يحيط بالشعوب منها من جبال وأنهار وصحراء في تكوينها[1].

وما دمنا نعالج ظاهرة لها حيز زمني هو العصر الجاهلي، ومكاني هو شبه الجزيرة العربية، فلا بأس من وصف جغرافي ينير لنا الطريق، ويعيننا على فهم مشكلة الجوع في تلك البيئة، إذ لا مناص من رابط بينهما،

---

[1]() فجر الإسلام، أحمد أمين، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ط١٠، ١٩٦٩م، ص ٤٤.

وعلاقة تقوم على التأثير، حيث ترتبط الأصول الأولية لأشكال السلوك البشري للعرب الجاهليين ارتباطًا عضويًا بالبيئة الجغرافية التي ولدت ونشأت فيها. فالإنسان دائمًا وليد بيئته، وإذا كانت بيئته تتباين بشكل واضح من مكان إلى آخر، ينتج عن ذلك بالضرورة اختلاف في تطوره في المناطق المختلفة(١).

تشكل شبه الجزيرة العربية رقعة مترامية الأطراف تقع في القسم الجنوبي الغربي من قارة آسيا، وهي أقصى منطقة في هذه القارة في هذا الاتجاه، وتبلغ مساحتها ثلاثة ملايين كيلو مترًا مربعًا(٢)

وتُحَدُّ هذه الجزيرة من الشرق بالخليج العربي، ومن الغرب البحر الأحمر، وحدها الشمالي خط وهمي يمتد في اصطلاح العلماء العرب من خليج العقبة حتى مصب شط العرب في الخليج العربي(٣)، وليس في الأرض شبه جزيرة تضاهيها في المساحة(٤) .

ولعل مساحتها الشاسعة وتنوع تضاريسها كانت الدافع من وراء تقسيم الباحثين من الجغرافيين، وغيرهم لها إلى عدة أقسام. ومنذ القديم عرف اليونان والرومان هذه الأرض وقسموها إلى ثلاثة أقسام هي(٥):

١() تاريخ العرب قبل الإسلام، د. محمد سهيل طقوش، طبعة دار النفائس، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م، ص ١١.

(2) السابق، ص ١١.

(3) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، طبعة جامعة بغداد، ط٢، ١٩٩٣م، ١/١٤٠ وما بعدها.

(4) تاريخ الأدب العربي–العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، طبعة دار المعارف، القاهرة، ط١١، ص ١٧.

٥() العرب قبل الإسلام، د. خليل يحيى نامي، طبعة دار المعارف القاهرة، ص ١٠.

١- العربية الصحراوية: وهي الصحراء الفاصلة بين العراق والشام، وهي المعروفة اليوم باسم بادية الشام.
٢- العربية الحجرية: وتشمل شبه جزيرة سينا، وبلاد النبط الذين كانوا يسكنون في الأراضي الجبلية، وفي المرتفعات المتصلة بها الواقعة في شرق البحر الميت.
٣- العربية السعيدة: وهي أكبر الأقسام الثلاثة رقعة، إذ كانت تشمل كل المناطق التي تعرف باسم شبه الجزيرة العربية، أو بمعنى آخر كانت تشمل شمال الجزيرة العربية ووسطها وجنوبها.

ومن هذا القسم الأخير شكل الجغرافيون المسلمون تقسيمهم الخاص للجزيرة العربية، وجعلوها خمسة مواضع فشملت نجدًا والحجاز وتِهَامة واليمن والعَرُوض[١]. وعند بعضهم جاءت في قسمين كبيرين هما الشام واليمن، أو كما يقول الهمداني:« وهي عند أهل اليمن يمن وشأم فجنوبها اليمن وشمالها الشأم»[٢].

ومن العرب المحدثين من يوافق اليونان والرومان في تقسيمها إلى ثلاثة مواضع، من هؤلاء الدكتور عبدالوهاب عزام، الذي قسمها إلى ثلاث مواضع، إلا أن حدود تقسيمه لها تختلف عما عينه اليونان سابقًا، إذ يقول: "ويمكن تقسيم الجزيرة تقسيمًا طبيعيًا إلى ثلاثة أقسام: الشمال والوسط والجنوب، فالشمال ما بين شاطئ مدين ورأس الخليج...وما يتصل به شمالًا،

[١]() معجم البلدان، لياقوت الحموي، طبعة دار صادر، بيروت: ٢/ ١٣٧.
[٢]() صفة جزيرة العرب، للهمداني، تحقيق: محمد علي الأكوع، طبعة مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٩٩٠م، ص ٨٩.

وهو صحراء حجرية في الشمال، ورملية في الجنوب، ولكنها بعد المطر تنبت مراعي واسعة، وأكثر سكان هذا القسم بداة رعاة".

والوسط الحجاز ونجد والأحساء، وكثير من جهاته قاحل فيه آبار وغدران، وكثير من بقاعه تجري فيه أودية كبيرة، فتنبت المراعي والزرع والشجر، وفيه كثير من القرى والمدن.

وأما القسم الجنوبي ففيه هضبة عسير واليمن في الغرب، والجبل الأخضر في الشرق»[١].

وعلى حداثة هذا التقسيم، فإنه لم يبتعد كثيرًا عن الجزيرة العربية التي عرفها العرب قديمًا، ولعله التقسيم الدقيق لهذه البقعة من الأرض، التي عاش فيها العرب آلاف السنين.

ومن ينظر بعد ذلك إلى المواضع التي عينها من أخذ بوصف هذه الجزيرة يجد ذلك التفاوت في المناخ والتضاريس، فتهامة مفرد لعدة تهائم تقع في أطراف الجزيرة من الناحية الغربية. منها تهامة الحجاز، وتهامة عسير، وتهامة اليمن، وتمتد من أقصى الجنوب في اليمن إلى أقصى الشمال عند خليج العقبة[٢]. وهي المنطقة الضيقة الساحلية الممتدة على طول ساحل البحر الأحمر، وهي التي كان العرب يطلقون عليها اسم الغور[٣]. وأكثر هذه المناطق الساحلية رملي شديد الحرارة قليل الإنبات، كما أن كل المدن الساحلية تقع في هذه المناطق، وهي مرافئ للسفن مثل جدة وينبع في

---

[١]() مهد العرب، عبدالوهاب عزام، طبعة مؤسسة هنداوي، القاهرة، ص ٢٦.

[٢]() دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، د.نعمان محمد جبران، ود.روضة سحيم حمد آل ثاني، طبعة مؤسسة حماد، الأردن، ١٩٩٨م، ص ٢٦.

[٣]() معجم البلدان: ١٥٩/٢.

الحجاز، والحُديدة والمخا في بلاد اليمن[١]. ومن أشهر مدن تهامة زبيد، ومكة، وينبع، وجدة، وتبوك[٢].

يلي هذه التهائم سلسلة جبال ضخمة، تأخذ بوجهها من أقصى اليمن إلى أطراف الشام، وهي التي تسميها العرب حجازًا، وهي سلسلة جبال السروات. يقول الهمداني:« وذلك أن جبل السراة وهو أعظم جبال العرب وأذكرها أقبل من قعرة اليمن حتى بلغ أطراف بوادي الشأم فسمته العرب حجازًا لأنه حجز بين الغور وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر فصار ما خلف ذلك الجبل في غربيه إلى أسياف البحر من بلاد الأشعريين وعك وحكم وكنانة وغيرها ودونها إلى ذات عرق والجحفة وما صاقبها، وغار من أرضها- الغور غور تهامة»[٣].

ومن مدنه المدينة، وخيبر، والطائف، وهي أراضٍ خصبة تنبت كثيرًا من أنواع الزروع والثمار، وفي المدينة وما حولها من وادي القرى وخيبر تكثر عيون الماء مما سبب نشاطًا زراعيًا استغله اليهود عندما كانوا يقيمون في تلك المنطقة، حتى وصفت خيبر وهي مدينتهم الأولى في الجزيرة العربية بكثرة نخلها وتمرها[٤]. ويصف الطائف من خبرها فيقول:« وهي مدينة صغيرة متحضرة، مياهها عذبة وهواؤها معتدل وفواكهها كثيرة وضياعها

[١]() العرب قبل الإسلام، ص ١١.

[٢]() دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، ص ٢٦.

[٣]() صفة جزيرة العرب، ص ٨٥.

[٤]() معجم البلدان: ٢/ ٤٦٩.

متصلة، وعنبها كثير جدًا، وزبيبها معروف، يتجهز به إلى جميع الجهات، وأكثر فواكه مكة من الطائف... والطائف أكثر بلاد الله عنبًا»[١].

وإذا انحدرنا من الحجاز أشرفنا على هضبة فسيحة تسمى نجدًا، وهي الأرض الغليظة المرتفعة، فكل ما دون ذلك الجبل من شرقيه من صحاري نجد إلى أطراف العراق والسماوة وما يليها نجد[٢]. ونجد أوسع أقاليم الجزيرة، ففي شماله تقع حائل أرض شمر، التي يفصلها عن صحراء النفود جبلي أجأ وسلمى، وفي شرقيه الوشم وبه جبال كثيرة وقرى عامرة كثرمداء والشقراء، إضافة إلى أودية كثيرة أعظمها وادي الرمة الذي يخترقها حتى يقارب البصرة. ومنها وادي حنيفة ووادي الدواسر وعلى جنبات هذين الواديين تزدهر الحياة بين الزروع والنخيل وأشجار الفاكهة، مما ترتب عليه إقامة بعض القرى الصغيرة المتفرقة[٣].

وإلى جور نجد من جهة الشرق تقع العروض، وهي التي يقول عنها ابن الكلبي:« وصارت بلاد اليمامة والبحرين وما والاها: العروض، وفيها نجدٌ وغورٌ لقربها من البحر وانخفاض مواضع منها ومسايل أودية فيها، والعروض يجمع ذلك كله»[٤] وعلى أن بعض العلماء يجعل اليمامة من نجد[٥] ، إلا أن أكثر الباحثين يبقيها في العروض. ويغطي العروض الامتداد

---

[١]() الروض المعطار في خبر الأقطار، لمحمد بن عبدالمنعم الحميري، تحقيق: د.إحسان عباس، طبعة مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص ٣٧٩.

[٢]() صفة جزيرة العرب، ص ٨٥.

[٣]() مهد العرب، ص ٤٤ وما بعدها.

[٤]() افتراق ولد معد، لابن الكلبي، جمع وتحقيق: أحمد محمد عبيد، طبعة هيئة أبي ظبي للثقافة والتراث،ط١، ٢٠١٠م، ص ٢٥.

[٥]() معجم البلدان: ٢٦٢/٥.

الذي يبدأ من الأطراف الشرقية لليمن والذي يستمر في اتجاه شرقي وشمالي شرقي حتى يصل إلى اليمامة والبحرين وما يجاورهما في شرقي الجزيرة العربية، إنه الإقليم الواقع على ساحل بحر الخليج، مابين عمان ومصب نهر دجلة عند عبَّادان والبصرة[١]. وكانت هذه المنطقة عند ظهور الإسلام عامرة بالقرى، مثل حِجْر وكانت حضرتها، ومثل سدوس ومنفوحة... وتكثر في هذا الإقليم الآبار والمياه وخاصة في الأحساء، ومن مدنه القديمة هجر والقطيف وكانت تسمى قديمًا بالخط. وفي جنوبي البحرين عمان ومن مدنها صُحار ودَبا، وعرف سكان هذه المنطقة من قديم بالملاحة واستخراج اللآلئ[٢].

وفي القسم الجنوبي من الجزيرة العربية تقع اليمن، وتجمع في تضاريسها بين نجود وتهائم، فتهامة اليمن المعروفة هي عبارة عن سهل خصب تنحدر إليه أودية من الجبال الموازية للساحل، وهذه الجبال هي عبارة عن امتداد لجبال السراة[٣]. وهذا السهل الخصيب كثير الماء بفضل الأمطار التي تتساقط على الجبال فتنحدر للأودية، مما ساعد بازدهار زراعي عُرفت من خلاله اليمن باليمن الخضراء، لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها[٤]. ومنذ القدم واليمن مأهولة بالسكان، وقامت فيها حضارات وممالك عظيمة، وسكنها العرب وغيرهم من الأحباش، وهي مهد عرب الجنوب من بني قحطان بن

---

[١]() تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢٣.

[٢]() العصر الجاهلي، ص ٢٠.

[٣]() تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٤.

[٤]() صفة جزيرة العرب، ص ٩٠.

يعرب، مما يدل على خصب أرضها، وطيب جوها، الذي هيأ لقيام مدن عدة من أبرزها زبيد وظفار وصنعاء وعدن ونجران[١].

وإن كنا قد تحدثنا عن أقسام الجزيرة العربية، التي عرفها العرب، وخصصنا بالذكر أخصبها وأكثرها مدنًا وحواضر، إلا أن في الجزيرة العربية بقاعًا ليست بالخصبة على الدوام، بل في أوقات قليلة من السنة، ومع ذلك يقطنها بعض الأعراب من البدو الرحل الذين اعتادوا العيش في هذه البقاع التي تسمى بالصحاري.

تحتل الصحاري مساحة كبيرة من جزيرة العرب، حتى إن بعضهم قدر نسبتها بالنصف من مساحتها مقابل البقاع الخصبة[٢]، وبعضهم يرى أنها أكبر جزء فيها[٣]، ويمكن تقسيم الصحاري في هذه الجزيرة على النحو التالي:

١- النفود:

وهي صحراء واسعة ذات رمال بيض أو حمر، تبتدئ من واحة تيماء، وتمتد إلى مسافة ٤٥٠كلم تقريبًا نحو الشرق، ويبلغ امتدادها من الجوف إلى جبل شمر زهاء ٢٥٠كلم تقريبًا[٤]، وهي التي كان العرب قديمًا يسمونها برملة عالج[٥]. وعلى الرغم من جفاف المنطقة، فإنها تتعرض بين

---

[١]() العصر الجاهلي، ص ٢٠.

[٢]() حضارة العرب، ص ٤٤.

[٣]() فجر الإسلام، ص ١.

[٤]() المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، طبعة جامعة بغداد، ط٢، ١٩٩٣م، ١٥٢/١.

[٥]() معجم البلدان: ٧٠/٤.

حين وآخر لشتاء ممطر، فينبت في بعض بقاعها نبات صحراوي وأزهار صغيرة، فيقصدها الأعراب للرعي[١].

٢- الدهناء:

وتعرف أيضًا بالأرض الحمراء، وهي تغطي في امتدادها من النفود شمالًا حتى الربع الخالي مسافة ٦٠٠ميل، وأرضها غالبًا مستوية صلبة مليئة بالحصباء ورمالها متموجة[٢]. وقد أطلقت العرب على هذه الصحراء عدة أسماء حسب موقعها، فالجزء الأول الذي بين شرقي اليمن وحضرموت يسمى صَيْهَدًا، والذي بين شمال حضرموت وشرقيها يسمى الأحقاف، والذي في مهرة يسمى الدهناء، ويسمى الآن جميعه بالربع الخالي[٣]. وعندما تسقط الأمطار الموسمية في المنطقة تنبت الأعشاب التي يقصدها البدو للرعي فيقيمون عليها ثلاثة أشهر يرعون ماشيتهم ويشربون لبنها، فإذا جاء الصيف بحرارته المرتفعة، جف الزرع، وانعدمت الحياة[٤].

---

[١] () تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٤.

[٢] ()دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، ص ٢٣.

[٣] () فجر الإسلام، ص ٢.

[٤] () تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٥.

٣- الحرات:

الحرار أراضٍ ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار، وهي كثيرة في بلاد العرب[١]، وقد تكونت بفعل البراكين، ويشاهد منها نوعان: نوع يتألف من فجوات البراكين نفسها، ونوع تكون من حممها التي كانت تقذفها، فتسيل إلى الأطراف ثم تبرد وتتفتت بفعل التقلبات الجوية، فتكون ركامًا من الحجارة البركانية تغطي الأرض بطبقات، قد تكون سميكة، وقد تكون رقيقة، تتبعثر فيظهر من خلال فجواتها وجه الأرض الأصلية[٢]. وتمتد الحرار في جزيرة العرب على امتداد المنطقة الغربية من شرقي حوران وتمتد منتشرة إلى المدينة ... ثم إلى الجنوب قرب باب المندب، كما توجد في بعض المناطق الوسطى والشرقية والجنوبية من هضبة نجد[٣]، ولوعورة الحرار واحتوائها على أحجار ذات رؤوس مدببة يصعب السير عليها، قلت الاستفادة منها، وتحولت تدريجيًا إلى منطقة صحراوية، لكن بعضها في الحجاز شديدة الخصب كحرة خيبر وواقم والوبرة وشوران[٤].

ومع ما تتمتع به الجزيرة العربية من تنوع طبيعي في جغرافيتها، إلا أنها تفتقر إلى الأنهار والبحيرات، إذ لا وجود لها على سطح هذه الجزيرة، التي حوت تضاريسها صحارٍ وجبال وهضاب ووديان يعتقد بأنها كانت أنهارًا

---

[١] () معجم البلدان: ٢/٢٤٥

[٢] () المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١/١٤٥.

[٣] () تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٥.

[٤] () دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ٢٤.

جارية في عصور قديمة جدًا لجزيرة العرب[١]. وتقوم هذه الوديان بدور الأنهار في بعض الأحيان، وذلك عندما تسقط الأمطار بكثرة فتسيل هذه الوديان، فينتفع الناس من الماء الذي يبقى لفترة ليست بالطويلة، فيشربون ويسقون حيواناتهم و زروعهم[٢]. وهذه الوديان متفاوتة بالطول والعرض والعمق وجهة الانحدار، فبعضها يتجه نحو الخليج، وبعضها الآخر يتجه إلى البحر الأحمر. وأطول هذه الوديان وادي الرُمَّة الذي يبدأ قريبًا من المدينة ويمر في القصيم، ثم إلى شط العرب، وهي كثيرة في هذه الجزيرة[٣].

وتجتمع هذه التركيبات الجغرافية في مناخ عام يسوده الحر والجفاف الشديدان في فصل الصيف، إذ ترتفع درجة الحرارة، ولا تهبط في الصحراء إلى أقل من ٤٣ نهارًا و٣٨ ليلًا، وتكون معتدلة في الأماكن الجبلية أو القريبة من البحر[٤]، ففي المناطق الجبلية في الطائف والحجاز واليمن والجبل الأخضر في عمان تنخفض درجة الحرارة صيفًا، وتهطل الأمطار الموسمية[٥]، وفي المنخفضات تشتد الحرارة، وتنعدم الأمطار.

وفي الشتاء تهطل الأمطار بغزارة في بعض السنوات على الأجزاء الشمالية من جزيرة العرب، ويتزامن هطولها مع برد شديد لا يتيح لأهل الإبل والغنم الانتفاع منها إلا في فصل الربيع، بعد انسلاخ البرد، ونمو الأعشاب

---

[١] () المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١٥٨/١.

[٢] () تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٨.

[٣] () جزيرة العرب في القرن العشرين، حافظ وهبة، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٣٥م، ص ٢.

[٤] () حضارة العرب، ص ٤٥.

[٥] () دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٣٠.

فتصبح أجزاء من الصحاري مراعٍ خصبة ينتجعها الأعراب ويمكثون فيها أسابيع قليلة هي مدة اخضرارها، ثم تعود جرداء لا كلأ فيها ولا ماء[١]. وهذه حقيقة قديمة صرح بها المقدسي بقوله وهو يصف الأقاليم:« وأكثرها حرًا وقحطًا ونخيلًا جزيرة العرب[٢]. ومن الباحثين من يرى أن مناخ الجزيرة وصل إلى حالة قريبة مما تعيشه هذه المنطقة حاليًا، ولم يتغير منذ سبعة آلاف سنة تقريبًا مع بداية الجفاف الذي بدأ عليها منذ العصر الحجري[٣].

نفهم مما تقدم أن أطرافًا من جزيرة العرب كانت دائمة الأمطار معتدلة الجو، وما زالت حتى يومنا في عسير وجبالها واليمن وسهولها الممطرة تتيح لأبنائها العمل في الزراعة، وتنتج من الفواكه والثمار مثل ما يزرع في أوربة[٤]، وبعض أطرافها ليس كسابقه، بل هو شديد الحرارة صيفًا شديد البرودة شتاء، جاف لا يساعد على زراعة ولا على إقامة، ويعمل أهله بالرعي ويتتبعون مساقط الغيث، يرحلون خلف أنعامهم ومواشيهم، لأنها عيشهم، وكل فريق قد رضي بعيشه، وما قدره الله له من رزق، فتكيف مع بيئته وما فيها من عوامل جغرافية ومناخية متباينة تتدخل في أحيان كثيرة في رزق العربي ساكن الجزيرة.

هذه صورة عامة ومختصرة لجغرافية الجزيرة العربية، شملت أقسامها وتضاريسها ومناخها، وهي أمور لا مناص من الحديث عنها، لأن دورها في

---

[١]() المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١٥٣/١.

[٢]() أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي، طبعة مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ١٩٩١م، ص ٣٣.

[٣]() دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٣٠.

[٤]() حضارة العرب، ص ٤٦.

تشكل الجوع بارز لا يخفى، وصلتها به وثيقة لا تنفصم. يقول الدكتور جواد علي بعد نهاية حديثه عن جغرافية الجزيرة:« والآن وقد وقفت على صفة جزيرة العرب، وعرفت على سبيل الإجمال معالم وجهها، وكيف تغلبت الصحراوية، وظهر الجفاف عليها، فإن في وسعك أن تكون رأيًا في سبب قلة نفوس العرب في الماضي وفي الحاضر، وفي سبب عدم نشوء مجتمعات حضرية وحكومات مركزية كبيرة فيها، وفي سبب تفشي البداوة وغلبة الطبيعة الأعرابية على أهلها وبروز الروح الفردية عند أهلها وتقاتل القبائل بعضها مع بعض...إن بيئة تحكمت فيها الطبيعة على هذا النحو، لا يمكن أن يشاكل سكانها سكان المناطق الباردة ذات الأمطار الغزيرة والخضرة الطبيعية الدائمة، أو سكان الأرضين التي حباها الله الخصب والأنهار والماء الغزير. من هنا اختلفت حياة العرب عن حياة غيرهم من الشعوب.

وللسبب المتقدم أي سبب تحكم الطبيعة في مصير الإنسان، انحصرت الحضارة في جزيرة العرب في الأماكن الممطورة والأماكن التي خرجت فيها المياه الجوفية عيونًا وينابيع، أو قاربت المياه فيها سطح الأرض، فأمكن حفر الآبار فيها»[1].

إن تكتل العرب في الأماكن التي يتوفر فيها الماء ويتاح لأهلها العمل بالزراعة، لا يعني أن العرب كلهم من الحضر المقيمين في القرى إلى جوار مزارعهم، بل كان فيهم من البدو الرحل ما لا يستهان بعدده، كما أن الإقامة في البقاع المخصبة في الجزيرة، لا يعني رغد العيش، فقد تكون الزراعة وغلتها حكرًا على أفراد قلائل، ومعلوم أن البدو كانوا يأنفون من الصنائع فلا

[1]() المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١/١٨٤.

يعملون بزراعة ولا بصناعة[١]، وهمهم الوحيد الرحيل وراء القطعان التي تكثر عند بعضهم فتصل إلى آلاف النوق، وتقل عند بعضهم حتى تنعدم فلا يكاد يمتلك منها شيئًا، وامتلاك الماشية خاضع لعوامل طبيعية تتمثل في المطر ووفرته، وفي الجزيرة ينحبس القطر سنينًا[٢]، وقد تهلك الماشية فتقود صاحبها إلى الفقر والجوع، وكثيرًا ما ردد العرب وصفهم للمحل والجدب بالسنين التي أهلكت الضرع، وفي المقابل يصفون المطر الذي هو سبيلهم في الخلاص بالغيث، وكذلك أهل الزرع لا يأمنون على زروعهم الجوائح، والفيضانات التي تجرف معها كل ما زرعوا، وقصة انهيار سد مأرب مشهورة معروفة، تحولت بعدها جنان اليمن وبساتينه إلى أراضٍ بورٍ لا تنبت إلا الخمط والأثل والسدر كما نزل في الذكر الحكيم.

هكذا يعيش العربي في جزيرته بين فقر الطبيعة وشحها، وبين الجوع والفقر، لذا كثر الاقتتال فيما بينهم، من أجل الحصول على المراعي التي تضمن لهم عيش دوابهم وعيشهم، أو من أجل الغنائم التي تضمن بقاءهم.

إن العامل الجغرافي سبب أصيل من أسباب الجوع والفقر في البيئة العربية، وهو ما دفع الدكتور يوسف خليف إلى أن يجعله من أسباب نشأة طائفة الصعاليك في العصر الجاهلي، إذ جعل لظاهرة الصعلكة تفسيرًا جغرافيًا، وضعه في الفصل الثاني من دراسته عن الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي[٣].

---

[١]() العصر الجاهلي، ص ٧٧.

[٢]() تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٨.

[٣]() الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د. يوسف خليف، طبعة دار المعارف، القاهرة، ص٦٣ وما بعدها.

والحق أن لهذا الفصل قيمة كبيرة فيما نتحدث عنه، حيث يربط الدكتور يوسف خليف بين تمرد الصعاليك الفقراء وغزوهم وغاراتهم، وبين المسرح الجغرافي الذي عاش فيه الصعاليك في الجزيرة العربية. وبعد أن فصَّل القول في البيئة وتضاريسها ومناخها، وأثبت مناطق الخصب والجدب، ومناطق الأمطار والعيون، ومناطق العيش الرغيد والعيش البائس[١]، انتقل إلى ما أسماه (بالتضاد الجغرافي) وقال عنه:« والخطوط الأساسية لهذه الصورة هي أنها منطقة صحراوية جبلية، عرفت الأغوار المنخفضة ذات الحرارة الشديدة، والجبال العالية ذات القمم الثلجية، وعرفت بينهما مناطق رملية مترامية الأطراف كثيرة المجاهل والمخاوف. ثم هي منطقة عرفت الجدب الذي تتعذر معه الحياة، حتى يضطر أهلها إلى الهجرة والخصب الذي يغري الناس على الاستقرار وإقامة القرى، وعرفت المطر يحتبس حتى تصبح البادية غير صالحة للسكن، والسيول تتدفق حتى تجرف أمامها كل شيء، وعرفت البرد يعقد ذنب الكلب، والحر الذي يذيب دماغ الضب، ويطبخ الإبل ويشويها»[٢]. ثم يبدأ الدكتور برصد أثر هذا التضاد على نفسيات العرب وأخلاقهم، حتى يصل إلى النتيجة التي أرادها من حديثه عن التضاد الجغرافي، وهي أن البيئة الطبيعية كانت عاملًا في وجود الفقر، وإحساس الفقراء به إحساسًا قويًا، ما نجم عنه نشأة عقدة الفقر[٣] في نفوس العرب من ساكني الجزيرة.

---

[١]() السابق، من ص٦٣ إلى ص ٧٢.

[٢]() السابق، ص ٧٢-٧٣.

[٣]() الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص ٧٧.

إن كل ما أردنا قوله عن جغرافية الجزيرة التي كانت أعظم مسبب للجوع في العصر الجاهلي، اختزله الدكتور يوسف خليف في هذا الفصل القيم، وأكد بما لا يدع مجالًا للشك بأن البيئة بمكوناتها مسبب رئيس للفقر الذي لا يختلف كثيرًا عن الجوع، إن لم يكن هو.

إن دراسة الدكتور يوسف وإن كانت خاصة لطائفة معينة في المجتمع الجاهلي، إلا أنها تنسحب على جميع سكان الجزيرة، إذ لا يختلف الصعاليك عن غيرهم في دفع الجوع، إلا بالسلوك الفردي الخارج عن أعراف القبيلة وتقاليدها، والذي لا يدين بسيادة أشياخ القبيلة و أشرافها، المنوط بهم أمر دفع الجوع عن أفراد القبيلة، لذا تصبح أيام العرب –كما سنبين– الوسيلة المنظمة للقبيلة العربية لدحر الجوع، يقابلها في عالم الصعاليك تلك الغارات والغزوات الفردية أو غير النظامية التي يقوم بها صعاليك العرب في وقت القحط والجدب، ومن كلا الفريقين نستدل بوقوع الجوع في العصر الجاهلي، ونتيقن من أن النظام الجغرافي للجزيرة العربية في ذلك الزمن كان أكبر خالق للجوع في عصرهم.

وإن كانت جغرافية الجزيرة والعقلية العربية قادتا العربي إلى الجوع، فإن الفقر في ذلك العصر الذي هو جوع بالأساس، لايحتاج إلى سبب كي ينشأ في بيئة ما، إذا لو كانت الجزيرة كلها خصبة ممرعة، وسكانها من أهل القرى والحواضر، لوجد بين ظهرانيهم فقراء جياع، تلك سنة الله في خلقه، لذا شرع سبحانه وتعالى الزكاة في الإسلام وألزم الأغنياء بها، وحث على الصدقات وجعلها مقربة إلى الجنة، وكلها وسائل يدفع بها الجوع، وما زال الناس في عصرنا الحاضر يتصدقون بالطعام. وقبل الإسلام نجد بعض الوسائل تقوم مقام ما شرعه الإسلام، والغاية من الشرائع والعادات هي مجابهة الجوع ورد

بأسه عن الفقراء الجياع. يضاف إلى ذلك أن العرب لم يعرفوا دولة منظمة ينتمون إليها، ويصبح من مهامها مكافحة الأخطار، والعمل على إيجاد مستقبل أفضل، والتقدم في مجال وضع قوانين الادخار والإنفاق، كما كانت تصنع الأمم المجاورة لهم، أو كما هو الحال بعد انتشار الإسلام، ووضع السنن لبيت المال و غنائم الفتوح، والفيء، والجزية. هذه الحياة البعيدة عن كل نظام أدت إلى نوع من عدم الاستقرار، والتخبط في سياسات القبائل، وغابت حلول الدولة وبقيت حلول الأفراد تهيمن على حل المشاكل، ومع فقر البيئة، وعدم الاستقرار في دولة حاضنة توفر لأفرادها سبل العيش، يصبح الجوع أشد ما يوجهه العربي في صحرائه.

الباب الأول

الجوع و المجتمـــــع

الفصل الأول

حقيقة الجوع في البيئة العربية

إن الجوع متصل ببدء الخلق، وقبل أن يعمر الإنسان الأرض ويستقر فيها. فيوم أن خلق الله آدم، وأسكنه الجنة ضَمِن له البارئ الوقاية من الجوع، وهو في الجنة، إذ يقول لله في محكم تنزيله مخاطبًا آدم: ﴿**فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى**﴾[1]، وهذه الآية أصدق دليل، وأول برهان على وقوع الجوع وقدمه، بل فيها من الدلالة على خطر الجوع، وفتكه بالإنسان بأن يضمن الخالق للمخلوق دفع الجوع عنه ما دام في جنته، فإن خرج منها فهو في رحمة الله إن شاء عذبه بالجوع، وإن شاء كفاه أمره.

ومنذ أن أُخرج آدم من الجنة وذريته في الأرض بين جوع واكتفاء. يسلط الله الجوع ابتلاءً وامتحانًا على أقوام، ويصرفه بفضله عن آخرين. فمن المبتلين بالجوع أصحاب القرية الذين جاء ذكرهم في القرآن في قوله تعالى عنهم: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾[2]. ومن الذين صُرف عنهم عذاب الجوع قريش في قوله تعالى: ﴿**الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**﴾[3]. حتى إن المؤمنين من عباد الله في باب البلاء والامتحان يسلط الله عليهم الجوع اختبارًا لهم ليعلم الصابرين منهم، يقول عز وجل: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ**

---

(1) سورة طه: الآية ١١٧ – ١١٨.

(2) سورة النحل: الآية ١١٢.

(3) سورة قريش: الآية ٤١.

وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[1]، هذا الخطاب القرآني للمؤمنين بوجه خاص فتح الباب أمام الجوع الذي أضحى عبادة مفروضة على كل مؤمن في كل عام مرة واحدة، وفي مرات عديدة للعباد والزهاد يتقربون به إلى الله صومًا عن الطعام، وإن كان الصوم عبادة قوامها الجوع بترك المأكل والمشرب، فإن الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– وصحابته الكرام –رضوان الله عليهم– خارج إطار التعبد أجهدهم أمر الجوع وأعنتهم، وفي كتب السنة أحاديث وأخبار كثيرة تدل على ذلك.

جاء في سنن ابن ماجة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع»[2].

وجاء فيها –أيضًا –عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتوي في اليوم من الجوع ما يجد من الدَّقَلِ ما يملأ به بطنه»[3].

وكان الصحابة الكرام يأتونه صلوات الله وسلامه عليه فيعرفون الجوع في وجهه[4]، وكان الجوع يخرجهم ويُخرجه من بيوتهم[5].

---

(1) سورة البقرة: الآية ١٥٥.

(2) سنن ابن ماجة، لأبي عبد الله بن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة البابي الحلبي، القاهرة: ١١١٣/١٢.

(3) السابق: ١ / ١٣٨٩. الدقل: التمر الرديء.

(4) مسند الإمام أحمد بن حنبل، حققه: شعيب الأرنؤوط وآخرون، طبعة مؤسسة الرسالة، القاهرة: ٣١٥/٢٨.

(5) موطأ الإمام مالك، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، طبعة مؤسسة الشيخ زايد الخيرية، الإمارات، ط١، ٢٠٠٤م: ٥/ ١٣٦٤.

وفي أحيان كثيرة لا يستطيعون إيقاف جهده إلا بالطرق الموروثة من الجاهلية، وهم قريبو عهد بها، كعصب البطن، وربط الحجارة عليها، كما كان يصنع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، حيث كان يقول عن نفسه: «لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع، وإن صدقتي اليوم لأربعون ألفًا»[1]، وكذلك فعل أبو هريرة رضي الله عنه الذي كان يعتمد بكبده على الأرض من الجوع، وكان يشد الحجر على بطنه[2].

إن هذا الامتداد لمشكلة الجوع منذ أبينا آدم وحتى خاتم الأنبياء والمرسلين، لهو أكبر دليل على عدم اختصاص الجوع بأمة دون أمة، أو ببيئة دون بيئة فالكل فيه سواء لا يفصل بينهم، إلا طرق دفعه ومكافحته والتكيف معه.

ولعل في ما قدمناه من صور لجوع الرسول –صلى الله عليه وسلم– وصحابته الأخيار ما يقربنا لموضوعنا الرئيس من دراسة الجوع في البيئة الجاهلية التي تتقارب مع البيئة التي نشأ فيها الإسلام أول الأمر إن لم تكن هي إذا استثنينا ما أماته الدين الجديد في نفوس الصحابة من العادات والشعائر والعبادات، وما قام على أنقاضها من قيم ومثل وعبادات إسلامية لم يكن لها أثر في البيئة من حيث هي بيئة تشمل المناخ والطقس والتضاريس وكل المعالم الجغرافية للجزيرة العربية.

عرفنا فيما سبق أن جغرافية الجزيرة العربية أسهمت بشكل كبير في خلق مشكلة الجوع، وأن لها اليد الطولى في ذلك، وأن البيئة الطبيعية لأي

---

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢/ ٤٦٣.

(2) السابق: ١٦ / ٣٩٧.

مكان تؤثر بالضرورة على حياة ساكنيها، وعقليتهم، وتكون منشئة للعديد من الأزمات والمشاكل التي تمر بها الأمم في مختلف الأزمان. وإن ظن البعض أن الحواضر قد أتاحت لأبنائها حياة أفضل بفضل الزراعة والتجارة وبعض الصناعات البدائية، وهذا حق لا سبيل إلى إنكاره، ومن الحق أيضًا أنَّ هذه الحواضر لم تلغِ الفقر، ولم تدحر الجوع بالجملة، وظل كثير من سكانها تحت وطأة الجوع، فمكة على سبيل المثال، وهي عاصمة التجارة والتجار كان أكثر سكانها من الفقراء الذين لا يملكون شيئًا(١). هذا ما ينبغي أن نؤكد عليه لأهميته البالغة، فمهما كانت الحواضر العربية غنية، أو الصحاري مخصبة لا بد من وجود جَوعَى، لأن الغنى في الجاهلية في معظمه غنى أفراد لا حواضر وقبائل كاملة، كما نحن في هذه الأيام فقر مدقع كثير، وغنى فاحش قليل، ومن هذا التباين في المعيشة يزداد عدد الجياع بشكل لافت للنظر، ويقل عدد المكتفين الذين يجدون قوتهم، وهذا شائع عند أهل المدر وأهل الوبر، وهي حقيقة تثبتها الأخبار والأشعار التي قرأتها في مصادر الأدب والتاريخ.

من هنا يترسخ مفهوم الجوع، وتتزايد رقعته لتشمل المدن وما استقر فيها من سكان، والقبائل المرتحلة وما انتسب إليها من أفراد، ويشمل أيضًا كل فرد قل ناصره في هذه البيئة القاسية فعانى مرارة الجوع. أضف إلى ذلك عددًا لا يستهان به من العبيد والخلعاء، كل هؤلاء لا يعنيهم وجود سيد في قبيلة يمتلك آلاف النوق، أو شريف في إحدى الحواضر له من الرقيق والعبيد والتجارة ما لا يخطر على بال، إذ لا تزال مشكلة الجوع في العصر الجاهلي مشكلة أفراد يمثلون السواد الأعظم في ذلك العصر.

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٤ / ٦٧٠.

ومما يحسن ذكره والتنبيه عليه في هذا المقام أمر الفقر، فعندما نمعن النظر في تراث ا لجاهليين لا نجد الجوع من نواتج الفقر أو من مسبباته، بل نجد الفقر هو الجوع معناهما واحد، فالفقير هو الذي لا يملك طعامًا يسد به جوعه، والفقير هو الجائع والعكس صحيح. وإذا نظرت إلى الغني وجدته في معظم أحواله هو من يُطْعِمُ الطعام، لأن ثروته مما يؤكل بالأساس، يقول لبيد بن ربيعة مفتخرًا بقومه:

إِذَا عُـدَّ القَـدِيمُ وَجَـدْتَ فِيْنَـا كَـرَائِمَ مَـا يُعَـدُّ مِـنَ القَـدِيْمِ
وَجَـدْتَ الجَـاهَ والآكَـالَ فِيْنَـا وَعَـادِيَّ المـآثِرِ والأَرُومِ[1]

والآكال سادة الأحياء الذين يأخذون المرباع وغيره[2]. والمرباع هو ربع الغنيمة التي يغتنمها المغيرون. وعنى لبيد بالآكال سادة قومه، واستخدامه لهذا اللفظ يوحي بأن العرب لم تكن تنظر أو تعرف في الكسب إلا ما يُطْعم.

لهذا سمى العرب الإبل مالًا[3]، وهي أكثر ما يأكلون ويفتخرون بامتلاك أكبر عدد منها، وتزخر أشعارهم بالفخر بنحرها وتقديمها للضيوف والجياع من أبناء الحي. وكأنَّ الغنى المتمثل بامتلاك الطعام يوعز بأصحابه إلى الفخر به، فبنو العنبر يفخرون بسيدهم عبد الله بن حبيب العنبري

---

(١) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه: د. إحسان عباس، طبعة وزارة الإرشاد والأبناء، الكويت، ١٩٦٢م، ص ١٠٦. الجاه: الوجه عند السلطان. عادي: قديم. الأروم: الأصل.

(٢) لسان العرب، مادة (أ ك ل).

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥ / ١٣٣.

بقولهم: «منا آكل الخبز» وأكل الخبز من علائم الغنى والمال، والذي كان يُطْعِمُ الخبز والتمر يعد من السادة الكرام(١).

وكل ما نريد توضيحه فيما تقدم أن الجوع من مرادفات الفقر، وأن الغنى من أضداده، وأن طبقة الفقراء الجياع أكثر بكثير من الأغنياء في البيئة الجاهلية، والشعر الذي هو ديوان العرب -كما يقولون- جاء ليبتدئ قصة الجوع، ويفصل فيها حتى يكتمل ما أراده شعراء ذلك العصر لهذه الظاهرة الملازمة للبيئة بأن تظهر بشكل مثالي مدروس يعرض فيه الشعراء كل ما تعلق بأمر الجوع بشكل مثالي ينم عن عقلية متفوقة، ونفس عفيفة لا هم لها سوى كسب الفضائل والمثل بشتى الوسائل المتاحة، وما يعتري بيئتهم من ظروف يكيفونها بشيمهم وعاداتهم النبيلة.

لقد أدرك الشاعر الجاهلي شح بيئته منذ علمه بطبيعتها؛ وعَلِمَ يقينًا أن هذه البيئة لن تمنحه أقل اليسير ليواصل العيش فيها، والتصدي لقسوتها، لذا نجد تعبيره عن الطعام الذي به يدفع الجوع يدخل إطار المغيبات التي لا يعلمها أفراد المجتمع كما يقول الشنفرى:

نَمُرُّ بِرَهْوِ المَاءِ صَفْحًا وقَدْ طَوَتْ ثَمَائِلُنَا والزَّادُ ظَنٌّ مُغَيَّبُ(٢)

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥ / ٨١.

(٢) ديوان الشنفرى، إعداد وتقديم: طلال حرب، طبعة دار صادر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م، ص٣٤. الرهو: المكان المنخفض يجتمع فيه الماء. الشمائل: جمع شميلة وهي الخلق.

بل إن السير في هذه البيئة، وبهذه الظروف يحتم على الرجل أن يسير بغير زاد وطعام كما يقول المتلمس:

وأَعْلَمُ عِلْمَ حَقٍّ غَيْرَ ظَنٍّ وَتَقْوَى اللهِ مِنْ خَيْرِ العَتَادِ
لحِفْظُ المالِ أَيْسَرُ مِنْ بُغَاهُ وَسَيْرٍ في البِلادِ بِغَيْرِ زَادِ(١)

وهذان البيتان يضعان أيدينا على حقيقة الجوع في الجاهلية، ويبثان في نفوس أبناء العصر الذي يسمع مثل هذا الشعر مشكلة العيش، ويفتحان أمامهم سبل الشكوى من هذا الخطر الماحق المسمى بالجوع. وعند الشعراء نجد غير شاعر شكا منه، وصدع بأمره، ووصف ما يجد من عنته.

من ذلك قول سليك بني سعد:

وَمَا نِلْتُهَا حَتَّى تَصَعْلَكْتُ حِقْبَةً وَكِدْتُ لأَسْبَابِ المنِيَّةِ أُعْرَفُ
وَحَتَّى رَأَيْتُ الجُوعَ في الصَيْفِ ضَرَّنِي إِذَا قُمْتُ تَغْشَانِي ظِلَالٌ فَأُسْدِفُ(٢)

إن اقتران الجوع بفصل الصيف في بيت السليك له دلالة خاصة تؤكد على شدة هذا الفصل، وتنامي الجوع والجياع فيه، لانقطاع أمطاره التي هي عصب الحياة في الصحراء، مما ينجم عنه هلاك المواشي طعام أهل الجاهلية.

---

(١) ديوان شعر المتلمس الضبعي، حققه وشرحه: حسن كامل الصيرفي، طبعة معهد المخطوطات العربية، ١٩٧٠م، ص ١٧٢.

(٢) ديوان السليك بن السلكة، شرحه: د. سعيد ضناوي، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ص ٨٥. ظلال: جمع ظل وهو الخيال والتهيؤات. أسدف: أظلمت عيناه من جوع وكبر.

ومن ظرف مشابه يشتكي فيها أحد الشعراء الجوع، بعد أن ألقى به النعمان ملك الحيرة في سجنه، ومنعه الطعام والشراب، فصدع بجوعه طالبًا عفو الملك بقوله:

يَـا حَمَـلُ بـنُ مَالِـكِ بـنِ أَهْبَـانْ
هَـلْ تُـبْلِغَنَّ مَـا أَقُـولُ النُّعْمَـانْ
إنَّ الطعـام كَـان عَـيْشَ الإنسَـانْ
أَهْلَكْتَنِـي بـالحَبْسِ بَعْـدَ الحِرْمَـانْ
مِـنْ بَـيْنِ عَـارٍ جَـائِعٍ وعَطْشَـانْ
وذَاكَ مِـنْ شَـرِّ حِبَـاءِ الضِّـيْفَانْ[1]

ويتزايد الإحساس بالجوع، والشكوى منه، عندما يجد الشاعر نفسه عاجزًا عن دفعه عن عياله وزوجه، ويضطره الزمان إلى التِّطواف بحثًا عن الطعام عند الأصدقاء من أبناء الحي، فلا يجد ملبيًا يؤازره في هذه المحنة، فيسلم أمره للجوع. تلك هي الصورة التي رسمها المزرد بن ضرار في قوله عن أحد الأشخاص:

وأَيْقَـنَ إذْ مَاتَـا بِجُـوعٍ وخَيْبَـةٍ ... وَقَـالَ لَـهُ الشَّـيْطَانُ إنَّـكَ عَائِـلُ
فَطَـوَّفَ فـي أصَـحَابِهِ يَسْـتَثِيْبُهُمْ ... فـآبَ وقَـدْ أَكْـدَتْ عليـهِ المَسَـائلُ
إلَى صِبْيَةٍ مِثْلُ المَغَالِي وخِرْمِلٍ ... رَوَادٍ وَمِـنْ شَـرِّ النِّسَـاءِ الخَرَامِـلُ
فَقَالَ لَهَا هَلْ مِنْ طَعَامٍ فَإنَّنِي ... أَذُمُّ إلَيْـكِ النَّـاسَ أُمـكِ هَابِـلُ
فَلَمَّا تَنَاهَتْ نَفْسُـهُ مِنْ طَعَامِهِمْ ... وأَمْسَـى طَلِيْحًـا مَـا يُعَانِيْـهِ بَاطِـلُ

([1]) شعر بني تميم في العصر الجاهلي، جمع وتحقيق: د. عبد الحميد المعيني، طبعة نادي القصيم الأدبي، ط٧، ١٩٨٢م، ص ٤٨٠. الحباء: ما يقدم للضيفان.

تَغَشَّـى يُرِيْـدُ النَّـومَ فَضْـلَ رِدَائِـهِ وأَعْيَا عَلَى العَيْنِ الرُّقَادَ البَلابِلُ[1]

ومن اشتراك جميع أفراد المجتمع، وعموم هذه المشكلة الضاربة في أنحاء الجزيرة العربية نجد النساء يشتركن في شكوى الجوع، وَيُبَينَّ تجاربهن معه. ولعل جوع المرأة أشد خطرًا –كما سنعرف– من جوع الرجل، حيث إن المرأة تنظر بعاطفتها إلى الأمور، فسرعان ما تشتكيه، وسرعان ما يؤثر فيها وبصبيتها إن كانت من ذوات العيال. تقول غنية بنت عفيف أم حاتم الطائي:

لَعَمْرُكَ قِدْمًا عَضَنِّي الجُوْعُ عَضَّـةً فآلَيْـتُ أَنْ لا أَمْنَـعَ الـدَّهْرَ جَائِعَـا
فَقُولا لِهذا اللاَّئِمِي اليومَ أَعْفِنِـي وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَعُضَّ الأَصَابِعَا[2]

وقد ذكر صاحب الأغاني في خبر هذه الأبيات: «أن أم حاتم كانت من أسخى الناس، وأقراهم للضيف، وكانت لا تليق شيئًا تملكه. فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها، ومنعوها مالها، فمكثت دهرًا لا يُدفع إليها شيء

---

(1) ديوان المزرد بن ضرار الغطفاني، تحقيق: خليل إبراهيم العطية، طبعة مطبعة أسعد، بغداد، ط١، ١٩٦٢م، ص ٤٨. يستثيبهم: يستعطفهم. أكدى: لم يصب حاجة. المغالي: سهام يرمى بها من غير نصل. الخرمل: الحمقاء الخرقاء. رواد: الطوافة في البيوت. هابل: من قولهم هبلته أي فقدته. طليحًا: ضعيفًا متعبًا. البلابل: هماهم صدره.

(2) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، جمع: بشير يموت، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، ٢٠٠٥م، ص ٩٥. الشاعرة هي غنية بنت عفيف بن عمرو بن امرئ القيس بن عدي بن أخرم. كانت من أسخى الناس، وأقراهم لضيف، وكانت لا تليق شيئًا تملكه. وزعم الطائيون أن حاتمًا أخذ الجود عنها. الأخبار الموفقيات ص٣١٦. معجم الشعراء الجاهليين ص٢٨٤.

منه، حتى إذا ظنوا أنها قد وجدت أَلَمَ ذلك أعطوها صِرْمة من إبلها، فجاءتها امرأة من هوازن كانت تأتيها في كل سنة تسألها، فقالت لها: دونك هذه الصِّرمَة فخذيها، فوالله لقد عضني من الجوع ما لا أمنع معه سائلًا أبدًا وأنشأت الأبيات»[1]. وهذه النظرة من أم حاتم للسائل هي نظرة عاطفية غذتها تجربة جوع حقيقية تشي بما يعانيه أفراد المجتمع الجاهلي من شدة الجوع يتساوى في ذلك الذكر والأنثى.

وينقل لنا ذو الخِرَق الطُّهَوِيُّ حديث زوجته عندما رأت إبله هزلى عجافًا فيقول:

لَمّا رَأَتْ إبِلِي جَاءَتْ حَلُوبَتُهَا ... هَزْلَى عِجَافًا علَيْهَا الرِّيْشُ والوَرَقُ
قَالَتْ: أَلاَ تَبْتَغِي مَالًا تَعيشُ بِهِ ... مِمَّا تُلاقِي، وشَرُّ العِيْشَةِ الرَّمَقُ
فِيئِي إلَيْكِ فَإِنَّا مَعْشَرٌ صُبُرٌ ... فِي الجَدْبِ لا خِفَّةٌ فِيْنَا ولاَ نَزَقُ
إِنَّا إِذَا حُطْمَةٌ حَتَّتْ لَنَا وَرَقًا ... نُمَارِسُ العُودَ حَتَى يَنْبُتَ الوَرَقُ[2]

---

(1) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، شرحه وكتب هوامشه: سمير جابر وآخرون، طبعة دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٦م: ١٧/ ٣٦٥.

(2) الأصمعيات، للأصمعي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، طبعة دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م، ص ١٢٤. الشاعر هو خليفة بن حمل بن عامر بن حميري بن مالك بن حنظلة بن طهية، وذو الخرق لقب له، شاعر جاهلي، كان من فرسان قومه. وفي طهية ثلاثة نفر يلقبون بذي الخرق، وهم قرط بن قرط، وشمير بن عبدالله بن هلال، وشاعرنا. ينظر خزانة الادب ٤٢/١ ومابعدها. الحلوبة: الناقة التي تحلب. العجاف: الهزلى التي لالحم عليها ولا شحم. الرمق: القليل من العيش. فيئ إليك: ارجعي إلى نفسك. الحطمة: السنة الشديدة.

فشكوى هذه المرأة أنها تعيش شر عيشة مع هذه الإبل العجاف التي لا توفر أكثر من الرمق الذي يمسك بقية الحياة، ولا تحاول نقلها إلى مرتبة الحياة الكريمة أو الرغيدة، لذلك تطالب زوجها بابتغاء مال يعاش به، ووصف هذا المال أنه يبلغ مالكه الحياة المرهفة.

وتتجلى في هذه الأبيات دلالات مختلفة يهمنا منها –كما أسلفنا– شكوى الجوع، ويهمنا كذلك ورود ألفاظ كالإبل والمال والرمق ومنها نستوحي أن أموالهم هي الإبل، وهي وسيلة العيش من عَدِمَهَا منهم افتقر وجاع.

وفي شكوى الجوع إقرار جاهلي بوجوده، وشدة خطره، وتمثله في شعرهم إدراك واعٍ لما يحيط حياتهم من بؤس وألم، نتيجة العيش تحت ظروف بيئية صعبة، ولذي اللب أن يميز بعقله ملابسات واقعه، وحجم المخاطر التي يتعرض لها، ويستعد لطرحها أدبيًا ومناقشتها في محيطه الاجتماعي حتى يتوصل لحلها. وما الشكوى إلا بداية الطريق لحلٍ جذري لأزمات الجوع التي تطالهم من حين إلى حين.

ولا يفهم من هذا الكلام أن شكوى الجوع في أشعارهم هي مدار الشعر، ومحوره الذي أفرغ فيه الشعراء طاقاتهم الفنية، وقصروا إبداعهم عليه، بل على العكس من ذلك كانت أقل مساحة ينسجون فيها، وإن كثيرًا من أصحاب الدواوين والمجموعات الشعرية التي رجعت إليها لم نجد عندهم ذكرًا للجوع، ولا الشكوى منه. وهذا أمر طبعي لأناس لا يرضون أن يَهْدِمَ مجدهم مثل هذا .

لا يخفى على القارئ أن أعظم الفضائل الجاهلية إطعام الطعام، ولهم فيه بدع وغرائب من إيقاد النيران على رؤوس الجبال، واتخاذ الكلاب لتهدي المسافرين بأصواتها، والمآدب وأنواعها، وغير ذلك كثير مما لا يوجد

إلا عندهم، وقد وصلوا فيه إلى رتبة عالية لا يناهزهم فيها أحد، وحازوا بها مثالية عظيمة لا تتوافق والإكثار من شكوى الجوع، فشكوى الجوع في الشعر بمثابة صرف الضيف وطالب العرف، وهذا ما لا يريده العربي، فأحجم كثيرٌ من الشعراء عن ذكره في شعره مخافة الذم، وحبًا للإضافة والأضياف ولا غرابة في ذلك، إذ العربي مشغوف بكسب المحامد، ولا يريد عائقًا يعوقه عن بلوغ المثالية المنشودة التي يترتب على فقدها عار الدهر –كما يقولون– وسبة لا يمحوها موت ولا حياة وشعرهم في ذم البخل والبخلاء يملأ فضاءهم، ويتناقله رجالهم وصبيانهم وكهولهم، ويورثونه لمن خلفهم. واستمع لابن الحطيئة وهو يحاور أباه في ضيف ألم بهم تتبين صدق ما قد سلف. يقول:

رأى شَبَحًا وَسطَ الظَلامِ فَرَاعَهُ فَلَمّا بَدَا ضَيْفًا، تَسَوَّرَ وَاهْتَمَّا
فقَالَ ابنُهُ لَمَّا رَآهُ بِحَيْرَةٍ أَيَا أَبَتِ اذْبَحْنِي ويَسِّرْ لَهُ طُعْمَا
ولا تَعْتَذِرْ بالعُدْمِ عَلَّ الَّذِي طَرَا يَظُنُّ لَنَا مَالاً فَيُوسِعُنَا ذَمَّا[1]

ويقول آخر:

وَإِنِّي لأَسْتَحْيِي وَفِي الحَقِّ مُسْتَحًى إِذَا جَاءَ بَاغِي العُرْفِ أَنْ أَتَعَذَّرَا[2]

وفي السياق ذاته يقول مُجَّاعَةُ بن مرارة الحنفي:

---

(1) ديوان الحطيئة، تحقيق: نعمان أمين طه، طبعة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م، ص٣٣٧.

(2) ديوان ابن مقبل، تحقيق: د.عزة حسن، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٢م، ص١١١. باغي العرف: طالب المعروف والخير. أتعذرا: أعتذر.

تَعَـذَّرْتَ لَمَّـا لَـمْ تَجِـدْ عِلَّـةً مُعَـاوِيَ إِنَّ الاعْتِـذَارِ مِـنَ البُخْـلِ
ولاَسِيَّمَا إِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ عُسْرَةٍ ولا بِغْضَـةٍ كَانَـتْ عَلـيَّ ولا ذَحْلِ[1]

من هذين البيتين نفهم أن شكوى الجوع داخلة في باب الاعتذار غير المحبب، فشاكي الجوع يلوح من بعيد للجائع والسائل والضيف أن لا زاد ولا قرىً عنده، وهذا مما تستقبحه مروءة العربي، وتأنف نفسه منه، لأنها تورث الملامة والذم، وتصف المعتذر بالبخل، والنفس العربية الجاهلية عاشت لكسب المحامد والفضائل التي يعمل الاعتذار على نقضها وتقويضها، حتى إن أحداث الأسنان يعون ما يُلحِقه الاعتذار من ذم لا يمحوه ماحٍ ولا يزيله مزيل، كما أن شعور المعتذر، وإن كان صادقًا شعور يكتنفه الحياء والوجل من السائل، وكأن تلبية سؤاله واجب لا مندوحة عنه، وهذا من إكبار أمر السائل في نفس المسئول وإن كان سؤله هينًا تافهًا يؤدى إليه، لكي لا يصير رفض المسألة سببًا في سلب الشرف والمجد.

وإلى جانب حرصهم الشديد على ألا يَمَسَ شرفهم قادح، أو تلوكهم ألسنة الذم والهجاء، تعاونوا بصدق لرد الجوع بكل قوة وحزم، إذ كانوا يرون فيه العدو القاتل، لذا نجد في شعرهم وصف مطعم الطعام "بقاتل الجوع"، ولعل هذا الوصف لم يأت اعتباطًا، فالقتال يدل على الخصم والند، كما يدل على العداوة والعدو المقاتل الذي إن لم تقتله قتلك، وكذلك كانوا ينظرون

([1]) ديوان بني بكر في الجاهلية، جمع وشرح: د. عبد العزيز نبوي، طبعة دار الزهراء، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م، ص ٣٥٠. الشاعر هو مجاعة بن مرارة الحنفي اليمامي. كان بليغًا حكيمًا، وكان من رؤساء قومه في اليمامة. لوالده أخبار مع النعمان بن المنذر ملك الحيرة. أدرك مجاعة الإسلام وأسلم، وله صحبة مع رسول الله ﷺ توفي نحو سنة ٤٥هـ. معجم الشعراء، للمرزباني ص٥١١. الذحل: الثأر.

للجوع في بيئتهم، وهذا الوصف لا يأتي إلا في سياق المدح، وكما يمدح الفرسان والشجعان يمدح قاتل الجوع. يقول العباس بن مرداس:

فَبَكِّ بَنِي هَارُونَ واذْكُرْ فَعَالَهُمْ وقَتْلَهُمُ للجُوعِ إِذْ كُنْتَ مُجْدِبَا[1]

ويقول أبو خراش الهذلي في مدح دبية السلمي:

فَنِعْمَ مُعَرَّسُ الأَضْيَافِ تَذْحَى رِحَالَهُمُ شَآمِيَةٌ بَلِيْلُ
يُقَاتِلُ جُوْعَهُم بمُكَلِّلاَتٍ مِن الفُرِنِّى يَرْعَبُها الجَمِيلُ[2]

ويأتي تعبير المرأة عن هذا الوصف، بما له من أثر في نفسها الرقيقة، فنجدها تستخدم المبالغة في القتل، لتدحر خطرًا يداني السبي والثكل لمن لا يجدون معينًا عليه. تقول الفارعة بنت شداد العذرية ترثي أخاها مسعود:

قَوَالُ مُحْكَمَةٍ نَقَّاضُ مُبرَمَةٍ فَتَّاحُ مُبْهَمَةٍ حَبَّاسُ أَوْرَادِ
قَتَّالُ مَسْغَبَةٍ وَثَّابُ مَرْقَبَةٍ مَنَّاحُ مَغْلَبَةٍ فَكَّاكُ أَقْيَادِ[3]

---

(1) ديوان العباس بن مرداس السلمي، جمعه وحققه: د. يحيى الجبوري، طبعة دار الجمهورية، بغداد، ١٩٦٨م، ص ٤٠.

(2) شرح أشعار الهذليين، صنعة: أبي سعيد السكري، حققه: عبد الستار أحمد فراج، طبعة المدني، القاهرة: ٣/ ١٢١٢ ومابعدها. تذحى: تسوق. شآمية: ريح شديدة باردة. الفرني: طعام ويقال أنه الخبز الذي يخرج من الفرن. يرعبها: يملؤها. الجميل الشحم المذاب.

(3) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص ٧٣. الشاعرة لم أجد لها ترجمة. وكثير من كتب الأدب تذكر أبياتها في رثاء أخيها ولا تترجم لها.

تدافع الأوصاف المبدوءة بصيغ المبالغة، ووضع صيغة قَتَّال للجوع والمسغبة لا ترمز إلا لقيمة المرثي في هذا الجانب، ولأهمية أمر الجوع في نفس الشاعرة والمجتمع على حد سواء، ليتنبه القوم إلى ما يحدق بهم من خطر الجوع الذي يستلزم شدة في دفعه لا يقدر عليها إلا من كان شريفًا ماجدًا في عشيرته.

وفي بعض القبائل يحمل السادة والأشراف لواء الجود والبذل، ورايات الإطعام في الملمات والشدائد، كحاتم الطائي الذي نَصَّبَ نفسه مدافعًا عن الهُلاَّك والمعدمين من أبناء قبيلته وغيرهم من العرب، فكان فارس هذا الميدان، وقف أمام الجوع وقاتله حتى بز أقرانه، وتفوق على كرماء زمانه، بما يتلاءم مع شهرته التي سارت بها الركبان، وخلدته في صفحة الكرم والكرماء، حتى عاش في نفس كل عربي رمزًا للكرم من عصره وحتى يومنا هذا، بفضل كرمه وقتله للجوع كما يقول أبو العريان الطائي في مدحه، وتفضيله على غيره في هذا:

أَقتَلَ للجُوعِ عِنْدَ تِلْكَ وَلَنْ يَدْفَأَ فِيْهَا بِمِثْلِكَ الصَّرِدُ[1]

والحق أننا مهما فتشنا عن كريم جاهلي –وهم كثر– يفوق حاتمًا فإننا لا نجد، ويبقى تفضيل القبائل لبعض ساداتها وأشرافها تحكمه العصبية

(1) ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره، صنعة: يحيى بن مدرك الطائي، دراسة وتحقيق: د. عادل سليمان جمال، طبعة المدني، القاهرة، ص ١٦٨. الشاعر لم أجد له ترجمة. والإشارة الوحيدة التي وجدتها له كانت في معجم الشعراء للمرزباني، حيث وضعه في الشعراء المجهولين والأعراب المغمورين، ص٥٩٢. الصرد: شدة البرد.

القبيلة. ومن يرجع لأخبار حاتم في الأغاني[١] يتبين صدق هذا ، إذ لا تتشابه سيرته مع أي من معاصريه على أقل تقدير، ويظهر بذله وجوده في قبيلته على وجه الخصوص، لإسكاته الكثير من صيحات الجوع، ولهذا نفهم تلاشي ذكره في مجموع شعر القبيلة[٢]، وكأن حاتمًا كفاهم الجوع والتعبير عنه.

يبقى تساؤل مهم ما دمنا نتحدث عن "قتل الجوع"، هل مات جاهلي جوعًا لقلة الطعام؟ هذا ما لا نستطيع الجزم به، وذلك لقلة الأخبار في هذا الشأن، ولاتخاذهم من الاحتياطات ما يكفي دون هلاكهم جوعًا ما داموا مستقرين في حواضرهم، أو مضارب قبائلهم، حتى في أسفارهم وهم يتجاوزون البراري الموحشة أيامًا طوالًا لا ينجيهم من الهلاك سوى التزود بما يكفي من الطعام للوصول إلى الوجهة التي ارتحلوا إليها.

وإن كنا نظن أن ما غاب عن الإخباريين والرواة من أسماء قتلى الجوع في تلك البيئة كثير حال دون معرفتهم بأسمائهم قلة شهرتهم التي زاد من طمس معالمها رمال الفلوات والمفاوز، وقد يقع مثل هذا إذا تاه مسافر أو مسافرون، وضلوا طريقهم فإن الهلاك جوعًا وعطشًا مصيرهم لا محالة. وهل كان الفخر بمعرفتهم بمسارب الصحراء، وهداية الأصحاب الذي يتردد كثيرًا في شعرهم إلا من أجل هذا. وهل كان الفرح الشديد الذي يبديه أهل المسافر بعد أوبته، والوليمة الخاصة التي تقام له إلا لهذا أيضًا؟[٣].

---

(١) الأغاني: ١٧/ ٣٦٣ وما بعدها.

(٢) شعر طيئ وأخبارها في الجاهلية والإسلام، جمع وتحقيق ودراسة: د. وفاء فهمي السنديوني، طبعة دار العلوم، الرياض، ط١، ١٩٨٣م: ٢ / ٣٢٧ وما بعدها.

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥ / ١٣١.

ومع أننا لم نجد ما يثبت الموت من الجوع للأفراد النازلين والمستقرين إما في البادية، وإما في الحاضرة، إلا وإنه تحت ظروف خاصة، ولأسباب غريبة يموت الجاهلي جوعًا. من هذا موت قيس بن جندل والد الأعشى الشاعر المشهور. وجاء في خبره أنه دخل غارًا يستظل فيه من الحر، فوقعت صخرة عظيمة من الجبل فسدت فم الغار فمات فيه جوعًا، وقال فيه من عَيَّر الأعشى بذلك:

أَبُوكَ قَتِيْلُ الجُوعِ قَيْسُ بنُ جَنْدَلٍ وَخَالُكَ عَبْدٌ مِنْ خُمَاعَةَ راضِعُ[1]

ولعل هذا البيت دليل صدق هذا الخبر، الذي يذكرنا بقصة أصحاب الغار الذين سدت الصخرة بعد دخولهم له فمه، فلم يستطيعوا الخروج حتى دعوا الله بصالح أعمالهم ففرج عنهم[2].

وتشابه القصتين قد يومئ بزيف قصة أبي الأعشى، وأنها من أحاديث القصاص، لكن البيت يزيد من مصداقيتها، إذ لا حاجة لشاعر أن يهجو الأعشى بقتل الجوع لأبيه لو لم يكن موته حقيقة لهذا السبب، ولاختار الهاجي غير ذلك من المثالب كما فعل في الشطر الثاني من البيت نفسه.

وفي خبر أغرب من سابقه يذكر ابن الأثير في الكامل أن معبدًا بن زرارة التميمي أُسِر في يوم رحرحان، أسره بنو عامر، وبقي عندهم حتى مات جوعًا[1]، فقال عامر بن الطفيل يذكر أمر معبد وموته:

---

(1) الأغاني: ٩ / ١٢٧. خماعة: بطن من العرب سموا باسم خماعة بنت جشم بن ربيعة بن زيد مناة.

2( ) صحيح البخاري، للإمام البخاري، طبعة دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠٠٢م، ص٥٢٨.

قَضَيْنَا الجَوْنَ عَنْ عَبْسٍ وَكَانَتْ مَنِيَّـــةُ مَعْبَـــدٍ فِيْنَـــا هُـــزَالاَ[٢]

ومـع الاخـتلاف فـي مـوت معبـد أكـان امتناعًـا منـه عـن الطعـام والشراب، أو منع بني عامر الطعام والشراب عنه، إلا أن موته جوعًا حقيقة ثابتة، حيث لم يكن مصابًا وقت أسره، وفشلت كل المساعي التي قام بها أخوه لقيط لافتدائه، فمات في أسر بني عامر جوعًا.

ومن هذه الأخبار ومؤكداتها من الشعر –على قلتها– نتبين غرابة الموت جوعًا في العصر الجاهلي، وأنها لا تحدث إلا خارج الديار كقصة معبد، وتحت ظروف غامضة يقودنا الشك فيها أحيانًا إلى تكذيبها، ولكن الأمر الذي لا نستطيع تكذيبه، ولا رده ما ذكرناه في بداية حديثنا من غلبة الجوع على الأفراد والمجتمع في ذلك العصر، وشكواه والصراع معه ميزة أثبتت لهم أشياءً ذكرنا بعضها.

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م: ١/ ٤٤٥.

(٢) ديوان عامر بن الطفيل، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٠٣.

الفصل الثاني

وصف الجائع

لا تلبث مشكلة الجوع طويلاً حتى تطفو على سطح المجتمع الجاهلي، وتخرج من طور وصفها قولًا إلى رسمها وتصويرها شكلًا، ويسارع الشعراء لوصف الحالة التي يكون عليها الجائع متخذين من هيئته مدخلًا لذلك الوصف، مع بيان دقيق للأنواع التي يطالها الجوع من أفراد المجتمع؛ إذ لا شك أن الجوع يعصف بأجناس معينة من البشر لها ظروفها التي ألجأتها إلى الركون لهذا الخطر.

ومع تدقيق بسيط فيما بين أيدينا من شعر نجد الأطفال والأرامل أكثر عرضة للجوع من غيرهم في تلك البيئة، ومرد هذا إلى غياب العائل الذي من وظائفه توفير الطعام والزاد لأسرته ومن يعول بالطرائق المتاحة والممكنة. ومع غياب العائل تصبح الأسرة إلى شر حال وأقبح منظر، تحت براثن الجوع، تترقب معينًا في النائبة، ومؤازرًا في الشدة.

ولا مراء في دور العائل وما يقدمه لأسرته من أسباب تقيهم ذل الجوع وحر المسغبة، لكن الأطفال والأرامل في الأحياء والقبائل العربية ينظرون بعد فقدهم المعيل إلى عائل أكبر منه يتمثل بسيد القبيلة، ومن تحته من أشرافها وذوي اليسار فيها، حيث كانوا يتنافسون فيما بينهم طمعًا في الرفعة والذكر الحسن إلى العناية والحرص على إطعام الجوعى لاسيما الأطفال والأرامل لشدة فاقتهم، وفقدهم السند بموت عائلهم.

ويذكر صاحب الأغاني أن امرأة أتت حاتمًا الطائي في سنة أذهبت الخُفَّ والظِّلف، فقالت يا أبا سَفَّانة، أتيتك من عند صبية يتعاون كالذئاب

جوعًا، فقال: أحضريني صبيانك، فوالله لأشبعنهم ... فلما جاءت قام إلى فرسه فذبحها، ثم قدح نارًا ثم أججها، ثم دفع إليها شفرة، فقال: اشتوي وكلي[١].

وتصرف حاتم هذا يصدر عن وعي جماعي يؤمن به كثير من أشراف ذلك العصر، وهو نوع من الالتزام بدحر كل المحن التي من شأنها أن تهدد كيان القبيلة واستقرارها، مما يخلق نوعًا من الصراع الداخلي بين أفرادها قد يؤدي إلى انقسامها، أو تردي القيم الأخلاقية فيها، كأن تسلك المرأة طريق البغاء من أجل أن تَطْعَمَ وتُطْعِمَ صبيانها، حتى إن الطعام يقبل كأجر لمثل هذه الممارسات في ذلك العصر[٢].

ومهما يكن من أمر فإن احتواء الأطفال والأرامل من لدن قبائلهم يُظهر مدى الحرص من عرب الجاهلية على عدم تفشي بعض الرذائل في الإطار الضيق للقبيلة، مما يدل على بصيرة نافذة في التعاطي مع المشاكل الاجتماعية كالجوع، التي تقود إلى فساد مجتمعهم. يضاف إلى هذا –مع مثاليته– إشفاق وعطف ورحمة لهذه الفئة المستضعفة يبديها أماجدهم بانكسار تام أمام أرملة مسكينة وطفل يتيم. بل قد يتطور الأمر معهم ليحرم الرجل نفسه ويؤثرهم عليها، والوصول إلى الإيثار تأكيد للعطف والإشفاق والتراحم، وتصوير لنفس جاهلية رقيقة شفافة طالما شوهت ووصفت بالوحشية والدموية، يقول عروة بن الورد العبسي:

---

(١) انظر: الخبر كاملًا في الأغاني: ١٧/ ٣٩٠ – ٣٩١.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥ / ١٣٧.

ورُبَّـــتَّ شُـــبْعَةٍ آثَـــرْتُ فِيْهَـــا يَـدًا جَـاءَتْ تُغِيْـرُ لَهَـا هَتِيْـتُ[1]

تأمل إيثار عروة لتلك اليد التي سألته شُبْعته وهي أقل ما يشبع لمرة واحدة، فيجود بها ولم يكن يملك غيرها، ووفق بين هذا وبين فقره المدقع وصعلكته تجد لب الرحمة والعطف في هذه النفس السمحة.

ومثله أبو خراش الهذلي، إلا إنه لا يؤثر غريبًا وإنما يؤثر أطفاله رغم جوعه الشديد، يقول:

أَرُدُّ شُـجَاعَ الـبَطْنِ قَـدْ تَعْلَمينَـهُ وأُوْثِرَ غيْرِي مِنْ عِيَالِكِ بالطُّعْمِ[2]

ومنه كذلك قول امرأة قشيرية:

ونَقْفى وَلِيْدَ الحَيِّ إنْ كَانَ جَائِعًا ونحْسَبُهُ إنْ كَـانَ لَـيْس بجَـائِعِ[3]

ونقفي نؤثر في لغة العرب، فالإيثار شيمة تربى عليها العربي، ووقر في نفسه منها ما وقر.

ويغدو تراحمهم أمرًا مألوفًا في الواقع القبلي، إذ يعمل على تأجيجه وإذكائه في نفوسهم كثرة الجياع وسوء منظرهم وهم يتقلبون بحثًا عن قاتل

---

(١) ديوان عروة بن الورد، شرحه: د. سعدي ضناوي، طبعة دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص ٩٨. شبعة: مقدار ما يشبع. هتيت: تسأل المعروف وتريده.

(٢) شرح أشعار الهذليين: ٣ / ١٢٠٠. شجاع البطن: شدة الجوع.

(٣) شعراء بني قشير في الجاهلية والإسلام حتى آخر العصر الأموي، جمع وتحقيق: د. عبد العزيز محمد الفيصل، طبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٧٨م: ٢ / ٣٥٤.

للجوع يطعمهم من فضله، أو يؤثرهم على نفسه، ولا يُعْدَم وجود مثل هذا الشخص، لكثرتهم وانتشارهم في القبائل.

إن أكثر الشعر الذي ورد فيه ذكر الأرامل والأطفال الجياع، جاء ليصف حالة البؤس التي أوصلهم الجوع إليها، فكثيرًا ما اقترن ذكرهم بصفات توحي بذلك، كقول طرفة في مدح قتادة بن مسلمة الحنفي:

إنِّـــي حَمِـــدْتُكَ للعَشِـــيرَةِ إِذْ جَـــاءَتْ إِلَيْـــكَ مُرِقَّـــةَ العَظْـــمِ
أَلقـــوا إِلَيْـــكَ بِكُـــلِّ أَرْمَلَـــةٍ شَـــعْثَاء تَحْمِـــلُ مُنْقَـــعَ البُـــرْمِ[1]

و الشعث وصف غلب على الأرملة والطفل، وهو دلالة على الجوع الشديد والهزال الواضح وسوء المنظر، وكلها من أمارات سوء الحال، وناتج من نواتج عبث الجوع في تلك الأجساد الناحلة.

ويصف لنا الطفيل الغنوي في فخره يتيمًا أشعث أُسيء إرضاعه قاده إليهم ضجة سمعها في ناديهم، فأكرموه حتى رأى نفسه سيدًا فيهم، يقول:

وَأَشْـعَثَ يَزْهَـاهُ النُّبُـوحُ مُـدَفَّعٍ عَنْ الزَّادِ مِمَّنْ خَلَّفَ الدَّهْرَ مُحْتَلِ
أَتَانَـا فَلَـمْ نَدفَعْـهُ إِذْ جَـاءَ طَارِقًـا وقُلْنَـا لَـهُ قَـدْ طَـالَ طُوْلُـكَ فَـانْزِلِ
هَنَأْنَـا فَلَـم نَمْـنُنْ عَلَيْـهِ طَعَامَنَـا فَـرَاحَ يُبَـارِي كُـلَّ رَأْسٍ مُرَجَّـلِ[2]

([1]) ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: د.علي الجندي، طبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص ١٤٥ – ١٤٦. مرقة العظم: هزيلة. شعثاء: مغبرة الرأس. البرم: جمع برمة وهي قدر من حجارة.

([2]) ديوان الطفيل الغنوي، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد، طبعة دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ١٩٦٨م، ص ٧٠. النبوح: أصوات الناس. المحتل: سيء الغذاء. طال طولك: أي طالت ليلتك. هنأنا: أعطينا. يباري: يعاند كل من شعره مرجل منا.

وإن كان الباب مفتوحًا أمام المادح والمفتخر، لذكر العناية التي يبدونها لليتيم والأرملة، فإنه لم يغلق أمام الراثي، بل كان أكثر منهم ذكرًا للأرملة والطفل، وكثيرًا ما جُمِعَ بينهما في شعر الرثاء، لإظهار اهتمام المرثي بهما، وعن خسارتهما بفقده. من ذلك قول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك الذي يؤكد فيه البكاء لما سيؤول إليه حال الأرملة واليتيم بعد موت أخيه:

فَعَيْنِـــيَّ هَـــلاَّ تَبْكِيَـــانِ لِمَالِـــكٍ ... إِذَا أَذْرَتِ الـرِّيحُ الكنِيـفَ المُرَفَّعَـا
وللشَّـرْبِ فَـابْكِي مَالِكًـا ولِبُهْمَـةٍ ... شَـدِيدٍ نَوَاحِيـهِ عَلَـى مَـنْ تَشَـجَّعَا
وَضَـيْفٍ إِذَا أَرْغَـى طُرُوقًـا بَعِيـرَهُ ... وَعَـانٍ ثَـوَى فـي القِدِّ حَتَّـى تكنَّعَا
وأَرْمَلَـةٍ تَمْشِـي بأَشْـعَثَ مُحْثَـلٍ ... كَفَرخِ الحُبَارَى رَأْسُهُ قَدْ تَضَوَّعَا[1]

ويقول أوس بن حجر في رثائه لأحد الأشخاص:

لِيَبْكِـكَ الشَّـرْبُ والْمُدَامَـةُ والـــ ... فِتْيَـــانُ طُـــرًّا وطَـــامِعٌ طَمِعَـــا
وذَاتُ هِـــدْمٍ عَـــارٍ نَوَاشِـــرُهَا ... تُصـمِتُ بالمـاءِ تَـوْلَبًا جَـدِعَا[2]

---

(1) المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، طبعة دار المعارف، القاهرة، ط٨، ص ٢٦٦. الكنيف: الحظيرة من الشجر تجعل للإبل تقيها البرد. المرفع: المرفوع. الشرب: الجماعة تشرب الخمر. البهمة: الشجاع. أرغى بعيره: حمله على الرغاء، لتجيبه الإبل برغائها. العاني: الأسير. ثوى: أقام. القد: سير من الجلد يستعمل قيدًا. تكنع: تقبض. الحبارى: ضرب من الطيور. تضوع: تفرق.

(2) ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ص ٥٥. النواشر: عصب الذراع. التولب: ولد الحمار، وأراد هنا طفلها. الجدع: السيء الغذاء.

وتكشف أبيات متمم وأوس عن لون جديد في الوصف، وهو تشبيه الجوعى من الأطفال بفروخ الطير، وصغار الحيوان، لضعفها وهزالها، وقبح منظرها. ولعل هذا مما درج عليه شعراء ذلك العصر في التشبيهات التي يحاولون فيها إظهار الهيئة بشكل سيئ.

ويقول أوس أيضًا في رثاء فضالة بن كلدة:

أَبَا دُلَيْجَةَ مَنْ يُوْصَى بأَرْمَلَةٍ ... أَمْ مَنْ لأَشْعَثَ ذي طِمْرَينِ طِمْلالِ[1]

ويقول خفاف بن عمير في رثاء صخر ومعاوية ابني عمرو بن الشريد:

تَعَلم أَنَّ خَيرَ النَّاسِ طُرّاً ... لِوِلْدَانِ غَدَاةَ الرِّيحِ غُبْرِ

وأَرْمَلَةٍ ومُعْتَرٍّ مُسِيْفٍ ... عَدِيمِ المالِ عِجْزَةُ أُمِّ صَخرِ[2]

ويقول لبيد:

لِيَبْكِ عَلَى النُّعْمَانِ شَرْبٌ وقَيْنَةٌ ... ومُخْتَبِطَاتٌ كالسَّعَالِي أَرَامِلُ[3]

---

(1) ديوان أوس بن حجر، ص ١٠٣. الطمر: الثوب البالي. طملال: الفقير.

(2) الأغاني: ١٥ / ٨٤. الشاعر هو خفاف بن عمير بن الحرث بن الشريد السلمي، والمعروف بخفاف بن نَدْبَة، وهي أمة، وكانت أمة سوداء، وإليها ينسب، وهو من أغربة العرب. كان ابن عم للخنساء الشاعرة المشهورة، أدرك الإسلام وأسلم، وشهد مع الرسول ﷺ فتح مكة، وكان حامل لواء بني سليم يومها. الشعر والشعراء ٣٢٩/١. غداة الريح: أي حين تهب الريح في الشتاء. المعتر: المعترض للمعروف دون سؤال. المسيف: الفقير المعدم. عجزة أم صخر: آخر ولدٍ وُلِدَ لها.

(3) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ص ٢٥٧. المختبطات: الفرق السائلات المعروف. السعالي: الغيلان.

ويشترك الشعراء فيما تقدم من أبيات ببيان المكانة التي كان عليها المرثي في قومه، ليشترك في بكائه أطياف متعددة من المجتمع أخصهم الجياع، لأن مصابهم فيه عظيم، لما بذله لهم من سماحته ورعايته، وكثرة بكائهم عليه تأكيد على أن جذوة من جذوات الرحمة والعطف قد انطفأت في القبيلة، ولا بد أن تحل مكانها أخرى، لذلك يُكْثِرُ الشعراء من البكاء على المطعم بوجه خاص للتذكير بمكانته، ولحث باقي أفراد القبيلة بالسير على نهجه.

ويستمر الشعراء في تصوير الجائع وحاله، ويزيدون الأمر وضوحًا عندما يوثقون الصورة وهم أمام القدور التي تغلي بلحم وشحم لتشبعهم، ولشدة جوعهم لا ينتظرون استواء الطعام، ويطالبون مُضيِّفهم التعجيل فيه. يقول عروة بن الورد راسمًا صورة للقدر ومن حولها:

عَلَيْهَا مِن الوِلْدَانِ مَا قَدْ رَأَيْتُمُ ... وتَمْشِي بِجَنْبَيْها أَرَامِلُ عُيَّلُ
وقُلْتُ لَهَا يا أُمَّ بَيْضاءَ فِتْيَةٌ ... طَعَامُهُمُ مِنَ القُدُورِ المُعَجَّلُ[1]

وحول مرجل الحادرة يُقْسِم الجائع بإلحاح عليه أن الطعام قد نضج، وبغيته أن يعجل لهم به، يقول:

ومُعَرَّضٍ تَغْلِي المَرَاجِلُ تَحْتَهُ ... عَجَّلْتُ طَبْخَتَهُ لِرَهْطٍ جُوَّعِ
وَلَدَيَّ أَشْعَثُ بَاذِلٌ لِيَمِينِهِ ... قَسَمًا لَقَدْ أَنْضَجْتَ، لَمْ يَتَوَرَّعِ[2]

---

(1) ديوان عروة بن الورد، ص ٢٠٩. عيل: فقيرات. أم بيضاء: كناية عن السواد تطلق عليها تحببًا. معجل: مطبوخ بسرعة.

(2) ديوان شعر الحادرة، حققه وعلق عليه: د. ناصر الدين الأسد، ص ٣١٧ – ٣١٨. المعرض: اللحم الذي لم يبلغ نضجه. المراجل: القدور. لم يتورع: لم يكف عن اليمين.

وقد ينصرف ذهن الجائع إلى القدر بشكل مباشر، متناسيًا صاحبها عندما يأوي إليها لا إليه، وكأنه يطلب الفضل منها. هذه قدر ثعلبة بن عوف كما يصورها لنا الأفوه الأودي فيقول:

فِيْنَـا لِثَعْلَبَـة بـنِ عَـوْفٍ جَفْنَـةٌ يَـأْوِي إِلَيْهَـا فِـي الشِّـتَاءِ الجُـوَّعُ
ومَـذانِبٌ مَـا تُسْـتَعارُ وجَفْـنَةٌ سَـوْدَاءُ عِنْـدَ نَشِـيْجِهَا مـا تُرْفَـعُ
مَنْ كَـانْ يَشْـتُو والأَرَامِـلُ حَوْلَـهُ يُـرْوِي بِآنِيَـةِ الصَّـرِيفِ ويُشْـبِعُ[1]

ولا عجب أن تصبح هذه القدر محط اهتمام الأرامل والجياع من أبناء الحي، إذ لها من الصفات ما يغريهم بالتعلق بها، فهي عظيمة تشبعهم، معلوم مكانها حيث لا يستطيع أحد حملها وتغيره، تدعوهم بصوت نشيج غليانها، دائم الطبخ فيها حتى اسودت، كما أن مغارفها عظيمة تعجل لهم بالطعام.

ومن الطريف أن يرى الشاعر قدره أُمًا تَحَلَّقَ حولها عيالها فهي تطعمهم بما استُودِعَتْ من الشفقة والرحمة، يقول المرقش الأكبر:

وَقِدْرٍ تَرَى شُمْطَ الرِّجَالِ عِيَالَهَا لَهَـا قَـيِّمٌ سَـهْلُ الخَلِيْقَـةِ آنِـسُ[2]

---

(1) الطرائف الأدبية، تصحيح وتخريج: د. عبد العزيز الميمني، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٩. الجفنة: القصعة الكبيرة. المذانب: مغارف الطعام. نشيجها: غليانها. ماترفع: لا تحرك من مكانها لثقلها. الصريف: الفضة الخالصة.

(2) ديوان بني بكر في الجاهلية، ص ٥٧٦. الأشمط: ما خالط سواد شعره بياض. القيم: القائم بشأنها. آنس: لطيف.

ولعل قدور الجاهليين تحتاج إلى بحث مستقل، لكثرة ذكرها في شعرهم وما ذكرناه هنا يخدم فكرة أردت إشباعها قبل الانتقال إلى غيرها.

لقد تبين لنا مما تقدم أن العناية تنصب على الأرامل والأطفال، وهذا ما شهد به كثير الشعر الذي يطريهم، ومع توصل المجتمع لهذه الحقيقة، وتمييزها بدقة بالغة، تأكيد لحقهم على القبائل، لذا نلحظ شدة التركيز على الأرامل والأطفال بنوع خاص في كل ما تقدم من شعر.

وبنظرة أكثر شمولًا ودقة للحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي، ولموضوع الجوع كما يتصوره شعراء ذلك العصر، فإننا نجد صنوفًا من الرجال عجزوا عن إطعام أنفسهم وأسرهم، إما لهرمهم كما ذكر المرقش آنفًا، وإما لمرض أو عاهة منعتهم من الكسب وطلب الرزق، وإعالة الأسرة، فلجأوا لما لجأ إليه الأرامل والأطفال، وتنعموا بنعيم السادة و الأشراف، يأكلون من موائدهم، ويحبسون أنفسهم عند قدورهم، ويراقبون فيض أيديهم، وجود بذلهم.

لقد كانت وسائل العيش القديمة تحتاج إلى الرجال وهم في كامل صحتهم، وعز شبابهم، ليتمكنوا من إعالة أنفسهم وأهليهم ومن كسب شرف الإضافة والإطعام، بما تتيحه الغارات ويمكن منه الصيد، فتبذله الرحمة فيما بينهم لكل جائع وضيف.

ويذكر صاحب الأغاني عن عروة بن الورد قوله: «كان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف، وكان عروة بن الورد يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته في الشدة، ثم يحفر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف ويكسبهم، ومن قوي منهم–إما مريض يبرأ من مرضه، أو ضعيف تثوب قوته– خرج به

معه فأغار، وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيبًا»[1]. يستفاد من هذا الخبر أن الحالة التي عليها الرجل، وتفاوتها بين مرض وهرم وضعف تقلل من فرص الكسب عنده، مما يترتب عليه الدخول إلى عالم الجوع من أوسع أبوابه، وسيره في قوافل الجياع الطويلة مع الأرامل والأطفال.

ومع اشتراكهم بالجوع فإن لهم هيئة تميزهم عن الأرامل والأطفال وقد تفهم من وصف الشعراء لهم، كأن يصرح الشاعر بأنهم ذوو الحاجات كما يقول زهير:

إِذَا السَّنَةُ الشَّهْبَاءُ بالنَّاسِ أَجْحَفَتْ وَنَالَ كِرَامَ المَالِ في الجَحْرَةِ الأكلُ
رَأَيْتَ ذَوِي الحَاجَاتِ، حَوْلَ بُيُوتِهِمْ قَطِيْنًا لَهُم، حَتَّى إِذَا أَنْبَتَ البَقْلُ[2]

فصاحب الحاجة في قول زهير هو السائل صراحة، وغير القادر على الكسب تضمينًا، لأنه لو كان قادرًا عليه لما سأل الناس، وذل السؤال مما تترفع نفس العربي عنه، وتأباه مروءته، وفي شعرهم شواهد كثيرة تثبت ذلك.

ومن ذلك أيضًا قول الشاعر نفسه في مدح هرم بن سنان المري:

أَنْ نِعْمَ مُعْتَرَكُ الحي الجِيَاع إِذَا خَبَّ السَّفِيْرُ ومأْوَى البَائِسِ البَطِنِ[3]

---

(1) الأغاني: ٣ / ٧٧.

(2) شرح شعر زهير بن أبي سلمى، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، طبعة دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨١م، ص ٩٢. الشهباء: البيضاء من الجدب. أجحفت: أضرت. الجحرة: السنة الشديدة البرد. القطين الساكن في الدار. أنبت البقل: كناية عن الخصب وزوال الشدة.

(3) السابق، ص ٩٩. المعترك: موضع الزحام. خب: جرى على وجه الأرض. السفير: ما انحت من ورق الشجر. البطن: الذي لزق ظهره ببطنه جوعًا.

فالبائس البطين ينطبق عليه ما ينطبق على ذي الحاجة، من حيث عدم القدرة عل الكسب، والركون إلى ذل المسألة.

ويخبرنا عمرو بن شأس عن سائل ألم به، ويصفه لنا وصفًا دقيقًا يُظهر فيه عجزه عن القيام بأمر نفسه وولده، من خلال ما أظهره فيه من بؤس لَحِظَهُ في ملابسه البالية، يقول:

لِمُخْتَبِطٍ مِنْكُمْ كَأَنَّ ثِيَابَهُ ... نُبِشْنَ لِحَوْلٍ أَوْ ثِيَابُ مُقَدِّسِ
لَهُ وِلْدَةٌ سُفْعُ الوُجُوهِ كَأَنَّهُمْ ... إِذَا اقْتَرَبُوا مِنْهُ جِرَاءُ مُقَرْقِسِ
قَطِيفَتُهُ هِدْمٌ ومَأْوَاهُ غِبَّةٌ ... إِلى وِلْدَةٍ وُبْرِ الحَرَاقِفِ بُؤَّسِ
هَنَأْنَاهُمُ حَتَّى تَنَادَوْا لِحَالِهِمْ ... بِمُعْتَلَجٍ كَأَنَّهُ لَوْنُ سُنْدُسِ[1]

لم تكن عادة السؤال شائعة بين عرب الجاهلية، لأن ثقافتهم تقوم على الكسب بأوجه علموها وتعايشوا معها، وللمرأة والطفل أهون في ذلك من الرجل، فلا أرى لسؤال الرجل، وإرغام نفسه على الذل إلا أسبابًا قهرية ككبر السن والمرض، أما ما دون ذلك فليست تعوقه عن الشموخ بذاته ورفعها عن الدَّنايا من سؤال ونحوه حتى إن ما يؤديه الأشراف من الديات والحمالات نسبة السؤال فيها قليلة إذا قيست بما يقصد إليه الشريف نفسه دون سؤاله، لإيقاف حرب أو صلح بين حيين سالت دماء فيهما، فيسعى بجاهه وماله للشفاعة بين الواتر والموتور أفرادًا كانوا أم جماعات، طلبًا في الصلح ووقف

---

(1) شعر عمرو بن شأس الأسدي، تحقيق: د. يحيى الجبوري، طبعة دار القلم، الكويت، ط٢، ١٩٨٣م، ص٢٨. ثياب مقدس: أي ثياب الزاهد. مقرقس: الجرو والكلب. دبر الحراقف: أي أصيبت حراقيفه بالدبر لشدة هزاله. والحرقوف: عظم الورك. المعتلج: من اعتلجت الأرض إذ طال نباتها.

نزيف الدم، وخير دليل على هذا هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذان سعيا في وقف الحرب بين عبس وذبيان ودفعا الديات، رغبةً منهما في صلاح أمر القبيلتين وعدم فنائهما بعد عقود من الحرب.

فإن كانت العرب لا ترى السؤال في أمر جليل يضمن لهم حياة وادعة هانئة يحفها السلام، وتعمها الطمأنينة، ويعدونه منقصة تحط من أقدارهم، وتُشَمِّتْ بهم أعداءهم، فمن باب أولى أن يحتقروه في سؤال الطعام، بل ويزدروا صاحبه إن كان قادرًا على تحصيله وإن كان راضيًا بالذل وقدح الهجاء.

لهذا يزدهر في شعر الصعاليك الحث على الكسب، وطلب الرزق وعدم الرضا بذل المسألة ما دام قادرًا عليه. ونراهم يوبخون هذا الصنف منهم. يقول حاتم الطائي:

ولَنْ يَكْسِبَ الصُّعْلُوكُ حَمْدًا ولا غِنًى ... إِذَا هُوَ لَمْ يَرْكَبْ مِنَ الأَمْرِ مُعْظَمَا

لَحَا اللهُ صُعْلُوكًا مُنَاهُ وهَمُّهُ ... مِنَ العَيْشِ أن يَلْقَى لَبُوسًا ومَطْعَما

يَرَى الخمْصَ تَعْذِيبًا وَإِنْ يَلْقَ شَبعَةً ... يَبت قلبُهُ من قِلَّةِ الهَمِّ مُبَهَمَا[1]

ومعلوم أن حاتمًا الطائي ليس من الصعاليك، وإنما يبين لنا في أبياته ما تعودوا عليه في العيش والكسب في السنوات والشدائد، وهذا تقرير لواقعهم، وإثبات أن السؤال قبيح مذموم. وقد تلقف الصعاليك هذا الفِكْر بدقائقه المنبثقة من الحياة العامة وأصبح ديدنًا لهم، فعندما نسمع عروة بن الورد يقول:

---

(1) ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي، ص ٢٣٩. لحا: لام. مبهما: قليل الهم.

وإِذَا افْتَقَرْتُ، فَلَنْ أُرَى مُتَخَشِّعًا لأَخِــي غِنِّــي مَعْرُوفُــهُ مَكْــدُودُ[١]

نعلم أن الكسب من الغزو عصب حياتهم، ولا تستقيم إلا به، فإما الكسب وإما الذل.

ومن الغريب أن تبقى هذه الفكرة مسيطرة وتسمر في العقلية العربية حتى الدولة العباسية، إذ نجد من يعتمد على القوة في الكسب احتقارًا لمذلة السؤال، واعتصامًا بقوته وشجاعته[٢].

ومهما يكن من أمر، فإن تصوير الرجل الجائع ووصفه في الشعر الجاهلي قليل، لأسباب شرحناها آنفًا، أما الأرملة والأطفال فجاء وصفهم كثيرًا، ولأسباب شرحناها أيضًا. والغريب أن جَوعَى الحي والقبيلة يُدْفَعُ جوعهم بمثالية سادة القبيلة وأشرافها، إذ لا يخفى –مما تقدم من شعر– تلك الرحمة التي تربط أبناء الحي وقت الشدائد، فيعطف غنيهم على جائعهم، ويكرم شريفهم ذليلهم. ومن مبدأ التراحم الممزوج بالعصبية لأفراد القبيلة يرى السادة والأشراف أن لزامًا عليهم دفع الجوع عن الرجال الضعفاء والأرامل البائسات والأطفال الأيتام، وهذه النماذج البشرية حرية بأن ترحم، وحري بمن رحمها أن يكتسب قيمة مثالية يثنى عليه بها. فَمَدحُ المادحين للمطعمين اعتراف بحق المتفضل على من تفضل عليه، والشعر تالٍ للفضل وليس متقدمًا عليه، والرحمة سبقتهما جميعًا، وبترتيب منطقي تصبح المعادلة رحمة فإطعام فمدح، وهذه قمة المثالية، وهي الحقيقة –في ظني– لكل مكارمِ

(١) ديوان عروة بن الورد، ص ١١٦. معروفه مكدود: أي لا يُنال إلا بجهد.

(٢) انظر على سبيل المثال أبيات الأحيمر السعدي، وترجمته في الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، طبعة دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م: ٢ / ٧٧٤.

الجاهليين، ولو تقدم المدح على الإطعام، لدخلنا في باب آخر يسقط هذه المثالية، ويحيلها من النبل إلى النفاق والتملق.

لم يكن العربي في العصر الجاهلي ليرضى بهدم صروح المجد التي تعاقبت عليها أجيال من آبائه وأجداده، وكان حريصًا أشد ما يكون الحرص على ألا يُمَس هذا الصرح، أو أن تخدشه كلمة هاجٍ أو قدح قادح، لهذا يطيل النظر والإمعان فيما حوله من مظاهر الحياة، ولا يدع بابًا يتاح له كسب الحمد فيه إلا ولجه، ولو أودى ذلك بماله ونفسه، وكان باب الجوع أعظم هذه الأبواب خطرًا وأكثرها نفعًا له، لما فيه من استمرارية تعادل حياتهم في ذلك العصر، وتغلب عليها.

جوع الجارة والجار:

إن علاقة الجوار أو المجاورة في العصر الجاهلي تختلف إلى حد كبير عن علاقة الدم والقرابة بين أفراد القبيلة. فكل قبيلة تعبر عن المنتسبين لها أصالة باللحمة وهم مجموعة العشائر والبطون التي ترجع إلى جد واحد وتقيم في حمىً واحد، أما الجار أو المجاور فلا نسب بينه وبين مجيره، وإنما العرف الذي سرى مع ظروف الحياة أجبر كثيرًا من الأشخاص على طلب الجوار، ودفع –في المقابل– كثيرين إلى قبوله.

وفي أغلب الأحيان يكون الجوار مسببًا، وما إن يطلبه الطالب إلا ونعلم أن ظلمًا وقع عليه، أو إهانة لحقته، وفي أكثر الأحيان تكون الجنايات والجرائر التي يقترفها الجاهلي هي مرد طلبه للجوار.

والجوار في مجمله يكون حماية لطالبه في المقام الأول، وقبوله من المجير يفرض عليه وعلى قبيلته أداء واجبات كثيرة للجار أبرزها الحماية

وحفظ كرامته والإحسان إليه وبره. وقد تُوصِل هذه الحقوق المستجيرَ إلى درجة الفرد الأصيل نسبه في القبيلة. وعقد الجوار عقد مقدس عند العرب، وانعقاده لاينفك إلا لأسباب جسيمة أو رغبة من المستجير.

وإن كنا فيما سلف قد تحدثنا عن بعض النماذج الجائعة في العصر الجاهلي وذكرنا الأطفال والأرامل والضعفاء من الرجال، فإن الجارة والجار في كثير من الشعر الجاهلي هم نماذج للجوع، وتأخيرنا الحديث عنهم، لاختلاف المثالية الجاهلية ورؤيتها بين أفراد القبيلة الصرحاء الذين يمثلهم الأطفال والأرامل والرجال الضعفاء وبين الطارئين على القبيلة من المستجيرين وطالبي الإجارة.

وللمتأمل أن يدرك النظرة المتباينة بين أفراد القبيلة فيما بينهم، وبين نظرتهم للمستجير، إذ كانوا ينظرون لبعضهم –خاصة المعوزين– نظرة عطف ورحمة وإشفاق، في حين أنهم ينظرون لعزتهم ومنعتهم في باب الإجارة. وإن كان ظهور العزة والمنعة في هذا الجانب قويًّا جدًا، إلا أن الرحمة لم تنعدم في نظرتهم للجارة بوجه خاص، وعنها دار معظم شعر الجوع في هذا السياق، مما يخلف خيوطًا للرحمة والشفقة، كون الجارة ضعيفة، لا ينهض بحقها إلا راحم مشفق.

ضَمِنَ عقد الجوار للجارة حقوقًا تحدث عنها بعض دارسي الأدب[1]، وقد ألم بعضهم بالحديث عن جوع الجارة بشكل عام، ونحن نعرض له وفق ما يظهر المثالية العربية في العصر الجاهلي، حيث كانت الجارة وسيلة من وسائل كسب الحمد، وطريقًا مؤديًّا إلى المثالية المنشودة.

---

(1) انظر: الفصل القيم الذي عقده الدكتور: مرزوق بن تنباك للجارة في كتابه الجوار عند العرب، ص ٩٢ وما بعدها.

عندما قبل المجير دخول المرأة في جواره ألزم نفسه بالقيام بأمرها والسهر على راحتها؛ ولأن معظم الجارات يرزحن تحت وطأة الفقر، فقد هدد الجوع بعضهن، مما دفع المجير إلى قتل جوعهن، كي لا يُحَطِّمَ عِزَّهُ وشرفه ومنعته بعد إجارته لها، ومن استقراء الشعر يظهر الجوع ودفعه عن الجارة أعظم مساحة من غيره من الفضائل التي بذلها المجير إلى جارته في شعر الجاهليين، ويكشف هذا الاهتمام بجوع الجارة من قبل الشعراء إلى أهمية الموضوع في نفس الجارة والمجير.

فهذا لبيد بن ربيعة يقول إن ممدوحه يضع لجارته التي حَلَّتْ إليه نفلًا وحظًا من السنام، وما دامت في جواره فهي مكرمة حصان لا ينالها أذى، إلى أنْ ترتحل إن شاءت، لعلها تحسن الحديث عن مجيرها:

وجَارَتُـــهُ إِذَا حَلَّـــتْ إِلَيْـــهِ لَهَـــا نَفْـــلٌ وحَـــظٌّ فـــي السَّـــنَامِ
فَـــإِنْ تقْعُـــدْ فَمُكْرَمَـــةٌ حَصَـــانٌ وَإِنْ تَظْعَـــنْ فَمُحْسِـــنَةُ الكَـــلامِ(١)

ولا يخفى تقدير المجير لجارته، حيث وضع لها نصيبًا من السنام، وهو أطيب لحم الإبل عند العرب، وكثيرًا ما يُفخر بتقديمه طعامًا للضيوف والجياع، من باب الإفراط في الكرم والمبالغة فيه.

وفي هذا السياق نجد الجارة في أشعار الجاهليين أو في معظمها – على الأقل– تتأرجح بين مدح المادح وهجاء الهاجي، فإن كان الغرض المطروق مدحًا وجدنا الجارة شبعى حَصَانٌ محفوظة من جارها، وإن كان عكس ذلك وجدت جوعها ظاهرًا لم يتعفف مجيرها عن هتك سترها وعرضها إن أتيح له ذلك.

(١) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ص ٢٠٤. نفل: نصيب. تظعن: ترحل.

وإن كنت أظن أن الهجاء القائم على سلب القيم والمثل لا يكون صحيحًا في كثير من الأحيان، والدليل على ذلك قول أعشى قيس في هجاء علقمة بن علاثة:

تَبْيتُونَ في المَشْتَى مِلاءً بُطُونُكُمْ وجَــارَاتُكُم غَرْثَــى يَبــتْنَ خَمائِصَــا
يُـرَاقِبْنَ مِـنْ جُـوعٍ خِـلالَ مَخَافَـةٍ نُجُومَ السَّمَاءِ الطَّالِعَاتِ الشَّوَاخِصَا[1]

فمن يسمع قول الأعشى يظن اللؤم في علقمة مع شرفه في قومه، وعلو مكانته، واستحالة ضيمه لجارته، حتى إن علقمة عندما سمع قول الأعشى هذا رفع يديه وقال: «لعنه الله إن كان كاذبًا! أنحن نفعل هذا بجاراتنا»[2]. وعد بعض العلماء بيت الأعشى أهجى بيت قالته العرب، وزادوا في خبر علقمة أنه بكى لما بلغه هذا الشعر[3]، ولعل بكاء علقمة يأتي لشدة التكذيب، لأن الناظر في خبر هذه الأبيات يعلم صدق ذلك، إذ قالها الأعشى وهو مناصر لعامر بن الطفيل في منافرته مع علقمة، والجو العام للمنافرة كان يتطلب بأن يحط مناصرو المنافِر من قدر من ينافرون، ولا مبالاة إن كان كلامهم صدقًا أو كذبًا، ولو فرضنا أن علقمة كان كوصف الأعشى له لما ساوى بينهما من احتكموا إليه ولم يُنَفِّر أحدًا على أحد، وخلف هذا كله يجثم غير قليل من طمع الأعشى في رفد عامر بن الطفيل.

---

(1) ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتعليق: د. م. محمد حسين، طبعة مكتبة الآداب، القاهرة، ص ١٤٩. الغرثى: الجائعة.

(2) الأغاني: ٩ / ١٤٢.

(3) ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، شرحه وضبط نصه: أحمد حسن بسج، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٤م: ١ / ١٦٨.

ولنؤكد على أن الهجاء كثيره ليس من الصدق في شيء في مسألة جوع الجارة عند الجاهليين، وإنما هو فضح المهجو، وإلصاق العار فيه، نورد أبيات عياض بن ديهث في هجاء بني يربوع إذ يقول:

أَصْـــبَحَ جَـــارَاتُ بَنِـــي يَرْبُـــوعِ
جَوائِمًـــــا كَـــــالرَّخَمِ الوَقُـــــوعِ
يُعْـــوِلْنَ بَـــيْنَ حَـــرْبٍ وَجَـــوْعِ[1]

وليس عدلًا ولا إنصافًا أن نقبل قول ابن ديهث في بني يربوع، ونحمله على محمل الجد، ونسلم أن جاراتهم من الذلة والجوع بحال يرثى لها، لأنه يهجو جماعة من الناس لا شخصًا واحدًا، وهجاء الجماعة فيه ما فيه من هضم حقوق بعض الأشراف والسادة الذين لايرضون لجاراتهم ذلًا ولا جوعًا، مما يقودنا إلى إدخال أبيات عياض في الافتراء المحض لسلب كل الفضائل من القوم الذين هجاهم، وهذا كثير في شعر الجاهلية.

ولا يعني ما تقدم عدم وجود الجارة الجائعة في العصر الجاهلي، لأننا نتحدث عن مجتمع فيه خير وشر، وحديثنا السابق يأتي في سياق كشف منطقي للحقيقة، فليس لسيد كعلقمة أن تكون جاراته بالصورة التي وصفها الأعشى، ومن غير المقبول أن نشهد بصحة شعر ابن ديهث الذي يحكم على جماعة قد يكون فيهم من أَعَزَّ جارته وصانها، وقد يكون فيهم من

---

(1) شعر بني تميم في العصر الجاهلي، ص ٩١. الشاعر هو عياض بن ديهث أحد بني عمرو بن سعد بن زيد مناة. وهو صاحب القصة المشهورة مع الحارث بن ظالم، عندما استجار به، لحبل أعاره إياه ليسقي إبله، حتى قالت العرب في أمثالها: (أوفى من الحارث بن ظالم). معجم الشعراء ص١٤٦. الرخم: ضرب من الطيور.

أساء معاملتها فأذلها وأجاعها. وإن احتكمنا إلى الشعر وجدنا أكثره يركن إلى مدح المجير وما يقدمه إلى جاراته، وأقله يذهب إلى هجائه.

ومن المدح قول حاتم الطائي في بني زياد العبسي:

وَجَــارَتُهُمْ حَصَــانٌ مَــا تُزَنَّــى وطَاعِمَــةُ الشِّــتَاءِ فَمَــا تَجُــوعُ[1]

ومع حرص حاتم على تأكيد شرف إطعام الجارة لبني زياد وهم الكملة أبناء زياد العبسي من فاطمة بنت الخرشب الأنمارية[2]، يضفي ما يقوي منعتهم، ويزيد من عزهم وشرفهم في عبس، وغيرها من القبائل وهو إحصان جارتهم، فلا يقدر أحد على النيل من شرفها أو تدنيس سمعتها.

ومع ذكر الشعر لكل الفضائل التي تتمتع بها الجارة عند مجيرها، إلا أنه أحجم عن وصف حالها وهي جائعة، ولعل هذا راجع لقداسة النظرة للجارة، وتصويرها وهي تشتكي الجوع كأرامل الحي وضعفائه من الولدان والرجال يزهدها في مجيرها ويرغبها في ترك جواره إلى غيره، مما يسم المجير بميسم الذل، ويجعله فريسة لسهام الهاجين.

ويبدو أن إدراك المجير لهذا الأمر عجل به إلى الإسراع في أمر الجارة والقيام به، وإحاطة أمرها بشيء من السرية لا تصل له أعين الناس في حي المجير، مع ضمان قُوتِهَا واستمراره مادامت في جواره، يقول الحطيئة مادحًا بني كليب:

---

(1) ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي، ص ١٤٨.

(2) الأغاني: ١٧/ ١٨٣.

وَيَحْــرَمُ سِــرُّ جَــارَتِهِمْ عَلَــيْهِمْ وَيَأْكُــلُ جَــارُهُم أُنُــفَ القِصَــاعِ(١)

فالمجير من بني كليب ضامن لجارته أمورًا تحفظها، ولا يعلمون من سرها شيئًا. فهذا الإبهام والستر لحال الجارة حال دون تصوير الجوع وشدته في حياتها، وإن كنا لنعلم أنها مرت بمآسي الجوع من كثرة حرص الشعراء على ذكر رد الجوع عنها وإشباعها.

ويصل الأمر بالمجير أن يأنف من نفسه ويزدريها أن يشبع وجاراته خمائص كما يقول حاتم الطائي:

وَإِنِّــي لأَخْــزَى أنْ تُــرَى بِــيَ بِطْنَــةٌ وجَــارَاتُ بَيْتِــي طَاوِيَــاتٌ وتُحَّــفُ(٢)

وليس غريبًا أن تغيب صورة الجائع بكل تفاصيلها البائسة عن الشعر الذي مس الجارة، لأن العرب يأمر بعضهم بعضًا بتأدية حقوقها وحفظها وإكرامها خاصة فيما يتعلق بأمر الجوع، وشاهد ذلك قول لبيد:

واعْفِــفْ عَــنِ الجَــارَاتِ وَامْنَحْــ هُــــنَّ مَيْســــرَكَ السَّــــمِيْنَا(٣)

فهذا التعهد من المجير للجارة والتواصي بالقيام بأمرها، وإن كان أثبت جوعها من جهة، إلا أنه من جهة أخرى حجب أعين الشعراء عن وصف كثير من أحوالها وقت إقامتها عند جارها، ولأن المجير رأى في صيانتها عزه وشرفه لم يترك سبيلًا للنيل منها ومنه، فأصلح شأنها أولًا بأول.

---

(١) ديوان الحطيئة، ص ٦٢. أنف القصاع: أولها أي يبدأون به ولا يؤكل منها قبله.

(٢) ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي، ص ٢٢٣.

(٣) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ص ٣٢٤. الميسر: الجزور

أما الجار الرجل فله من الحقوق ما للمرأة[1]، لكن أمر الجوع عنده مغاير لما هو عند المرأة. فالرجل قد يكون ثريًا وقت طلبه للجوار، وقد يعتمد في كسبه على ما تعتمد عليه القبيلة المجيرة، وفي هذا تفسير لقلة شعر الجوع الذي ذكر الجار، مقارنة بالجارة التي إن لم يطعمها جارها هلكت، فليست كالرجل في المقدرة على الكسب، ولا بد لها من عائل يقوم بأمرها، لذا قل الشعر الذي ذكر الجار الجائع وقل وصفه تبعًا لذلك، ومن أشهر الأبيات التي ذكرت جوع الجار بيت الأعشى الذي يقول فيه:

وَالشَّـافِعُونَ الجُـوعَ عَـنْ جَـارِهِمْ حَتَّـى يُـرَى كَالغُصْـنِ النَّاضِـرِ[2]

وفي هذا البيت ما يكفي للدلالة على أن بعض الجيران قد سغبوا حتى تداركهم المجير وشفع عنهم الجوع أي رده عنهم حتى عادت نضارتهم إليهم، بفضل مجيرهم ممدوح الأعشى.

إن خصوصية تجربة الجوار في أعراف الجاهلية أملت عليهم طريقة مثلى للإجارة، وفرضت عليهم كذلك قيودًا ربطت مصيرهم بمصير الجار لا العكس. فحقوق الجار والجارة إن أديت مدح مجيرهم، وإن أغفلت وأهملت هجي ولحقه العار بسبب ذلك.

ومع تعدد هذه الحقوق يقبع الجوع ورده عن الجيران على رأس هرمها، وكثيرًا ما مدح وافتخر بإطعام الجارة ورد الجوع عنها، وكذلك الجار وإن قل نصيبه من هذا الشعر إلا أن له نصيبًا منه يبرز الاهتمام بهذا العقد المقدس.

---

(1) الجوار عند العرب، ص ٣٥ وما بعدها.

(2) ديوان الأعشى الكبير، ص ١٤٥. الشافعون: الدافعون.

ولأن الطعام أساس دفع الجوع، رأيناه في كل ما تقدم يظهر في شعر غير قليل، وهو العامل الأبرز في دفع الجوع وقتله، فكان لا بد من الحديث عن الرؤية الجاهلية للطعام بوجه خاص، وهم الذين تقاتلوا من أجل الغنيمة التي هي طعام في الأساس، فما هي نظرة العرب للطعام؟.

الفصل الثالث

النظرة الجاهلية إلى الطعام

لا تخفى القيمة التي يمثلها الطعام فيما نحن بصدد الحديث عنه من جوع أهل الجاهلية. إذ لا مراء في كون الطعام المادة الأولية التي بها يذهب الجوع ويزول، ومن دونها يهلك المرء جوعًا.

فللطعام قيمة في الحياة البشرية، وعند شعوب الأرض كافة، وقد يؤثر تحصيله على سلوك الأفراد والجماعات، حيث كان تاريخ الإنسان منذ البداية هو تاريخ نضاله في سبيل الحصول على خبزه اليومي[1]، فالنظرة البشرية للطعام تختلف باختلاف من ينظر إليه، فمنهم من يراه أهم شيء في الحياة، بل هو الحياة وفقده نهاية هذه الحياة، ومنهم من يرى الطعام مهمًا، ولكنه وسيلة للعيش وليس غايتها، وصنف ثالث رأى في الطعام حفظ الحياة فقط، ولم يغلب عليه حبه ولم يتكالب عليه، وكان يقنع بالكفاف منه، ويُسَيِّرُ ما زاد عن حاجته بما يعود عليه بحسن الذكر والسيرة العطرة.

ومن هذا الصنف الأخير أكثر عرب الجاهلية، وللطعام في شعرهم أحاديث كثيرة تُظِهر تباين الرؤية واختلافها للزاد –كما يسمونه– في الحياة العربية، ومع تباينها واختلافها، إلا أنها تصب في بوتقة مثاليتهم، وترفع لواء شرفهم وعزهم، وتنأى بهم عن أوحال اللؤم والخسة التي بَيَّنَ الشعراء طريقها في ذكرهم للطعام وما يتعلق به.

إن أولى بوادر الرؤية الجاهلية للطعام في الحياة العربية، ما نجده من ترفع العربي عن قذر الطعام، وما تعافه النفس السليمة، ما لم يشرف

([1]) جغرافية الجوع، ص ١١.

على الهلاك، إذ كان أكثر أكلهم التمر واللبن ولحوم الإبل، وكل طيب من الأكل أكلوه وعرفوه وذكروه في أشعارهم[١]. وعندما عاب كسرى على العرب أكلهم للحوم الإبل وذمها لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها، حتى إن السباع تعافها ردت عليه أنفة النعمان ونفسه السليمة التي رفضت ذم كسرى لمطعمهم بقوله: «وأما قولك إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها، فما تركوا ما دونها إلا احتقارًا له، فعمدوا إلى أجلَّها وأفضلها فكانت مركبهم وطعامهم، مع أنها أكثر البهائم شحومًا، وأطيبها لحومًا، وأرقها ألبانًا، وأقلها غائلة، وأحلاها مضغة وأنه لا شيء من اللحم يعالج بما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه»[٢]. ومع تأكيد هذا الخبر على عدم قبول نفوسهم إلا الطيب من الزاد على ما يرونه –وهذا ما نعتقده– إلا أن هناك من الروايات ما قد يوهم بتدني مطعمهم، من ذلك ما نقله ابن قتيبة عن قتادة قال: «قال زياد لغيلان بن خَرَشَة: أُحِبُ أن تحدثني عن العرب وجهدها وضنك عيشها، لنحمد الله على النعمة التي أصبحنا بها، فقال غيلان: حدثني عمي قال: توالت سِنون تسع في الجاهلية حطمت كل شيء، فخرجتُ على بَكْرٍ لي في العرب فمكثت سبعًا لا أطعم شيئًا إلا ما ينال منه بعيري أو من حشرات الأرض ... إلخ»[٣]. وذكره لحشرات الأرض قد يستعظمه القارئ ليدل به على سوء مأكلهم، وهذا ليس صحيحًا، إذا تبينا معنى الحشرات في كتب اللغة، حيث يعرفها أبو حاتم عن أبي خيرة بقوله: «حشرة الأرض

---

(١) البخلاء، الجاحظ، تحقيق: طه الحاجري، طبعة دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٤٨م، ص ٢١٠.

(٢) التذكرة الحمدونية، لابن حمدون، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، طبعة دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م. : ٧ / ٤٠٧.

(٣) عيون الأخبار: ٣ / ٢٤٤ – ٢٤٥.

الدواب الصغار منها اليربوع والضب والورل والقنفذ والفأرة والثعلب والهر والأرنب، وقيل الصيد أجمع حشرة ما تعاظم منه أو تصاغر وما أُكِل من الصيد فهو حشرة الواحد والجميع»[1]. ومن هذه الأصناف التي يسمونها قديمًا بحشرات الأرض ما تعود الناس على أكله حتى يومنا هذا كاليربوع والضب والأرنب، ولا يتدنى مطعم العربي الجاهلي إلى ما يكره ويستقبح وتعافه النفس إلا في الشدائد وشعوره بالهلاك، وهذا ما شرعه الإسلام بعد ذلك للمسلمين؛ إن خافوا على أنفسهم الهلكة، وجاء به نص القرآن.

ومما تؤكده الروايات أن عرب الجاهلية لشدة جوعهم كانوا يخلطون الوبر بالدم ويأكلونه، وهو ما يسمونه (بالعِلْهِز) وقد ذكره لبيد بن ربيعة في شعره عندما وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

وَلاَ شَيءَ مِمَّا تَأكُلُ النَّاسُ عِنْدَنَا سِوَى العِلْهِزِ العَامِيّ والعَبْهَرِ الفَسْلِ
وَلَيْسَ لَنَا إِلاَّ إِلَيْكَ فِرَارُنَا وَأَيْنَ يَفِرُّ الناسُ إِلاَّ إِلى الرُّسْلِ[2]

وتقترب هذه الأبيات من شكوى الخصاصة والفاقة التي يعانيها عرب الجاهلية، دون تحقق أكل العلهز. ومع النظر في معاجم اللغة نجد للفظة العلهز عدة معاني، منها ما تقدم ومنها أن العلهز نبات ينبت في بلاد بني سليم، ومنها الناب أي الناقة المسنة على أن أكثر معانيها تدور حول الدم المخلوط بالوبر[3]، وفرق شاسع بين أن يكون العلهز نباتًا أو ناقة مسنة،

---

(1) المخصص: ٢ / ٣٠١.

(2) شرح ديوان لبيد بين ربيعة العامري، ص ٢٧٧. العبهر: اسم للنرجس أو الياسمين. العامي: الحولي. الفسل: الذي لا يؤكل.

(3) لسان العرب، مادة (ع ل هـ ز).

وبين أن يكون دمًا بوبر قد خلط وطبخ فيأكله الجاهلي. وإن كنت أظن أن بيت لبيد يرجح أن يكون العلهز ضربًا من النبات لعطفه على العبهر وهو ورد النرجس، فيكون معنى البيت أننا لا نأكل سوى النبات لعوزنا وإملاقنا.

أما أكلهم النبات فبابه واسع في حياتهم، ويشهد به شعرهم كقول عروة بن الورد:

إِذَا آذَاكَ مَالُـــكَ فَامْتَهِنْـــهُ لِجَادِيْـــهِ، وَإِنْ قَـــرَعَ المُـــرَاحُ
وَإِنْ أَخْنَـــى عَلَيْـــكَ فَلَـــمْ تَجِـــدْهُ فَنَبْـــتُ الأَرْضِ وَالْمَـــاءُ القَـــرَاحُ[1]

وروى أبو عبيدة أن قيسَ بن زهير العبسي عندما فارق قومه، ولحق بعمان مكث ستة أيام لا يطعم طعامًا ولا يسأل أحدًا، وكان يأكل من نبت الأرض[2].

ويجمل الألوسي فكرة حرصهم على أكل طَيِّبِ الأكل رغم الفاقة والعوز بقوله: «كان مأكولهم في غالب الأزمان لحوم الصيد والسويق والألبان وربما ابتلع أحدهم الريح أو مضغ القيصوم والشيح أو حرش اليربوع والضب أو صاد الظبي والأرنب. وكان الغالب من أهل باديتهم لا يعاف شيئًا من المأكل لقلتها عندهم. ومنهم من كان يعاف القذر ويتجنب عن أكل

---

(1) ديوان عروة بن الورد، ص ١٠٧– ١٠٨. امتهنه: ابذله. الجادي: السائل. قرع: خلا. المراح: موضع الإبل ومراحها. أخنى عليك: أي الدهر جار عليك وأهلكك. القراح: العذب السائغ للشراب.

(2) التذكرة الحمدونية: ٩ / ٩٢.

كل ما دبَّ ودرج. وكان أحسن اللحوم عندهم لحوم الإبل ولا يفضلون شيئًا عليها، وكان منهم من يستطيب أكل الضب»[١].

ولعل بداية الرؤية للجاهليين -كما قدمناها- تشي بأن شعرهم سيكون أكثر مثالية، وستتعدد زوايا نظرتهم للزاد، لتثبت هذه الحقيقة، ولتثبت أننا أمام عقلية متطورة تنظر وتقيم ما حولها لتصل إلى مرادها.

عندما أطلت النظر في الشعر الذي تحدث فيه الجاهليون عن الطعام لمحت كثرته أولًا، ومن ثم وقعت على معتقدهم فيه من الأبيات التي يحاولون أن يمرروها عن حقيقته وعن وظيفته. أما حقيقة هذا الزاد فزواله المحتوم كان قناعة من قناعاتهم، أكدوا عليها في شعرهم، حتى قال حاتم الطائي صراحة:

وَلاَ أُزَرِّفُ ضَيْفِي إِنْ تَأَوَّبَنِي ... وَلاَ أُدَانِي لَهُ مَا لَيْسَ بِالدَّانِي
لَهُ المُوَاسَاةُ عِنْدِي إِنْ تَأَوَّبَنِي ... وَكُلُّ زَادٍ وَإِنْ أَبْقَيْتَهُ فَانِ[٢]

فالزاد زائل لا محالة في نظر حاتم الطائي، مما يدفعه إلى التكرم به وبذله للضيف وطالب العرف، لاعتقاد زواله وفنائه بأي شكل.

وبكل أنفة وفخر يجهر الطفيل الغنوي بقناعته في زوال الزاد، وبأسلوب تهكمي ينفي عن نفسه خسة حبس الزاد فيقول:

وَلاَ أَكُونُ وِكَاءَ الزَّادِ أَحْبِسُهُ ... إِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّ الزَّادَ مَأْكُولُ[١]

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، للألوسي، عني بشرحه وتصحيحه وضبطه: محمد بهجة الأثري، طبعة دار الشرق العربي، بيروت: ١ / ٣٨٠.

(٢) ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي، ص ١٦٤. أزرف: أدفع. تأوبه: نزل به ليلًا.

نُعِتَ هذا البيت بأنه أعف بيت قالته العرب[٢]، وإن كنت أرى أن كل الشعر المتصل بموضوع الطعام والزاد في مجمله عفيف يشف عن أخلاق راقية وسمو في الطبائع لا نرى لها مثيلًا عند غير العرب.

ويتطور هذا المعنى عند شاعر آخر؛ إذ ينفي عن نفسه إخفاء الزاد والطعام حذرًا من الغد، وعلى حد قوله لكل غدٍ طعام :

وَلَسْتُ بخابئٍ أَبَدًا طَعَامًا حِذَارَ غَدٍ لِكُلِّ غَدٍ طَعَامُ[٣]

وينسب هذا البيت –مع تغير طفيف– لحاتم الطائي[٤]، وفي نسبته لحاتم أو لغيره دلالة واضحة على ترسخ هذه الرؤية في المجتمع الجاهلي، وأنها من صميم اعتقادهم في الطعام، لا زوال لها ولا شك فيها إلا عند الأشحاء البخلاء الذين يحتقرهم أفراد المجتمع الكرماء، ويرون فيهم اللؤم والخساسة، إذ قدموا شرفهم ورفعتهم قربانًا للقوت الزهيد النافذ لا محالة، فأصبحوا عرضة للهجاء والتوبيخ من أقرانهم الكرماء، يقول ابن الوهل المريحي:

---

(١) ديوان الطفيل الغنوي، ص ٥٨. الوكاء: ما يشد به الشيء ليحبس.

(٢) الأغاني: ١٥ / ٣٣٨.

(٣) ديوان أوس بن حجر، ص ١١٥.

(٤) ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي، ص ٣٠٤.

كُـــلُّ قَلِيْـــلٍ خَيْـــرُهُ أَزَام ... إِنْ قُلْـــتَ أَسْـــلِفْنِي إِلـــى أَيَـــامِ
صَـاعَيْنَ أَوْ مُـدَّينِ مِـنْ طَعَـامِ ... وَجَدْتَـــهُ مِـــنْ شِـــدَّةِ الإِرْمَـــامِ
أُخْـرِسَ أَوْ قَـدْ لَـسَّ بِالبسـام ... كالضَّبِ في صَدْعِ الصَفَا المِعْصَامِ[1]

فعدم الوصول إلى قناعة أن الزاد نافذ مستقبح في البيئة الجاهلية من وجه الجشع والشح، وابن الوهل ازدرى هذه العقلية الدنيئة وشبه صاحبها بالضب تقليلًا وتحقيرًا له، لاكتنازه الزاد وعدم دفعه المد والمدين لطالب العرف، واكتفى بالسكوت ردًا على طلب المرمل، مما يجعله مخالفًا للأخلاق والأعراف الجاهلية، ويجعله في مرمى الهجاء، وخارجًا من دوائر الكرم والجود وقابعًا في مستنقعات البخل والشح.

ويزيد حاتم الطائي بأن يوبخ من هذا فكره، وهذه نظرته المخالفة للمروءة، لا عند حاتم فقط وإنما عند كل سيد شريف من العرب، فيقول:

لَحَـا اللهُ مَـنْ أَمْسَـى يُقَلِّـبُ زَادَهُ ... وَمِنْ حَوْلِهِ قَلْبًا إِلى الجُوعِ فَارِحُ[2]

ويتهكم تميم بن مقبل بهذا الفكر، فيقول:

وَكَـانَ أَبُـوهُ التَّغْلِبِـيُّ إِذَا بَكَـى ... عَلَى الزَّادِ لَمْ يَسْكُتْ بثَذْيٍ وَلاَ نَحْرِ
أَتَتْـهُ، وقَـدْ نَـامَ العُيُـونُ، بِكَسْـبِهَا ... فَبَاتَا عَلَى جُوْعٍ، وظَلَّا عَلَى غَمْرِ[1]

---

(1) شعراء بني قشير في الجاهلية والإسلام، ص ٣٣٧ – ٣٣٨. الشاعر لم أجد له ترجمة، وجامع شعر بني قشير لم يترجم له، واكتفى بنقل الأبيات من التعليقات والنوادر للهجري، الذي لم يترجم له أيضًا. التعليقات والنوادر ص١٠٠٥ أزام: أمسك. السلف: القرض. الإرمام: السكوت. أخرس: ذهاب الكلام عيًا أو خلقة. اللس: الأكل.

(2) ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي، ص ٣١٠.

ومع تحقق الكسب في البيت الثاني، وبكاء التغلبي على الزاد في البيت الأول، هجاء بالحرص والشح يدل عليه المبيت على الجوع، هذا الحرص على الطعام مكروه يزدريه الشعراء وغيرهم، لأن فيه زوالًا للتكافل والتراحم الذي رأينا أوجهًا عديدة منه فيما تقدم من هذا البحث.

ولنا أن نقر بأن هذا اللون من الشعر ينهض على تعرية المجتمع، وكشف مساوئه، وإبراز معايبه، فلو كان الحرص على الزاد في أزمان الرخاء والبحبوحة لم يكن ليتطرق له العربي، لاكتفائه، لكن حرص بعضهم يأتي زمن الشدائد والملمات، ووقت الجوع كما صرح بذلك حاتم وابن مقبل مما يفاقم هذه المشكلة، ويزيد من مدى خطرها، فكان لابد من توجيه الهجاء لأمثال هؤلاء، لتقويمهم وإصلاح المجتمع وعدم تقويضه.

ولا شك أن الشعر ذو غاية، ومن غاياته تقويم المجتمعات بالكشف عن معايبها، إما بِطَرْقِ المشكلة وتصويرها، وإما بهجاء مفتعلها، فهجاء الجبان والبخيل على سبيل المثال يحمل جوانب تقويمية يستفيد منها المهجو بإصلاح حاله، مما يعود عليه نفعًا بتصيير سابق هجائه إلى مديح، وتستفيد منه القبيلة والمجتمع بإخراج هذا الفرد من السوء إلى الحسن، وهذه وظيفة من وظائف الأدب.

فخزن الطعام والتكالب عليه مثلبة عند عرب الجاهلية، وقد التصق- كما تقول الروايات- هذا الأمر بقبيلة تميم فشان بعض رجالها، واستمر تعيير الناس لهم بحب الزاد حتى عصر متأخر. جاء في كتب الأدب حكاية المثل "إن الشقي راكب البراجم" ما ذكره ابن حمدون في التذكرة من قوله:

---

(١) ديوان ابن مقبل، ص ١١١- ١١٢. الغمر: العطش.

«وبنو تميم يُذَمُون بالجشع، وسبب ذلك أن عمرو بن هند قُتِلَ أخوه وهو طفل في حجر زرارة بن عدس، فآلى ليقتلن من بني دارِم مائة وليحرقنهم بالنار، فأعوزه واحد من المائة، وإذا راكب من البراجم قد أقبل حين شم القتار، فلما رآه قال له: ممن أنت؟ قال: من البراجم، قال: ما جاء بك؟ قال: شممت القتار فظننته طعامًا، فقال: إن الشقي راكب البراجم، وألقاه في النار»[1].

وقال أيضًا: «لما أمر كسرى بقتل بني تميم لأخذهم اللطيمة، خدعهم هَوْذَة ابن علي الحنفي بالطعام، وقال: إن الملك أمر أن يُفَرَّق فيهم الزاد، فاجتمعوا، فكان يدخل الرجل منهم إلى المُشَقَّر –وهو حصن باليمامة– بحجة الزاد فيقتله، إلى أن قتل منهم عددًا، وفطن أحد الباقين وهو خبر مذكور مشهور يُذكر في أخبار العرب وهجوهم بذاك ورد في الهجاء»[2].

وقال الشاعر يهجوهم:

إِذَا مَا مَاتَ مَيْتٌ مِنْ تَمِيمٍ ... فَسَرَّكَ أَنْ يَعِيشَ فجِئ بِزَادِ
بِخُبْزٍ أَوْ بِتَمْرٍ أَو بِسَمْنٍ ... أو الشَّيءِ المُلَفَّفِ في البِجَادِ
تَرَاهُ يَطُوفُ فِي الآفَاقَ حِرْصًا ... لِيَأْكُلَ رَأْسَ لُقْمَانَ بنِ عَادِ[3]

وعلى الرغم من كون هذا الخبر والشعر متصلين بالعصر الجاهلي، فإن ذكرهما استمر إلى العصر الأموي، وفي ولاية الحجاج للعراق سأل

---

(1) التذكرة الحمدونية: ٩ / ١٠٦ – ١٠٧.

(2) السابق: ٩ / ١٠٧.

(3) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ١ / ٣٨١ – ٣٨٢. الملفلف بالبجاد: نوع طعام تعير تميم بأكله.

جلساءه يومًا: أي صوت سمعه أحدكم أحسن؟ فقال بعضهم ... ثم قال شعبة بن علقمة التميمي: لا والله ما سمعت قط أعجب إليَّ من أن أكون جائعًا مع قوم جياع، فأسمع قعقعة الخوان خلف ظهري. فضحك الحجاج وقال: أبيتم يا بني تميم إلا حب الزاد(١).

وورد في خبر الأبيات الآنف ذكرها، أن معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه– سأل الأحنف بن قيس ما الشيء الملفف بالبجاد؟ وسؤال معاوية تعريض بالأحنف وقومه من بني تميم وحبهم للزاد، حتى اشتهر عنهم هذا الأمر وعيرتهم العرب به(٢).

والحق أن الجوع قد أغرى بعض الفقراء بالتكالب على الطعام، والبحث عنه في أوقات الشدة، وليس الأمر مقصورًا على بني تميم وحدهم من قبائل العرب، ومع حرص بعضهم على الطعام، فإن بعض سادتهم عَفَّ عن ذلك ورفع نفسه لشرفه كالأحنف الذي كان يقول لقومه: «جنبوا مجلسنا ذكر النساء والطعام، فإني أُبغض الرجل أن يكون وصافًا لبطنه وفرجه، إن من المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه»(٣). وهذا قول يخرج صاحبه من ابتذال سؤال الطعام، والحرص عليه، ويرفعه عن خرم المروءة في التكالب على الطعام.

ومع ذكرنا لهذا الأمر عن بني تميم، إلا أنهم كانوا أرحم فيه من غيرهم، كالطفيليين الذين ظهروا في العصر العباسي، وكالأكلة الذين

---

(١) التذكرة الحمدونية: ٩ / ١٠٦.

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ١ / ٣٨١.

(٣) عيون الأخبار: ٣ / ٢٢٠.

اشتهرت أخبارهم من خلفاء ووزراء وشعراء في العصر الأموي والعباسي[١]، ولم يكن عصرهم عصر ضنك وشدة، وإنما كان أكلهم هواية مسلية، والبون شاسع بين من يحرص على الطعام ويسعى له وهو في شدة الجوع، ومن يحرص عليه ولا ينفك عنه وهو في رخاء ونعمة.

ولا يعتقد القارئ أن العوز والحاجة قد تدفع جميع العرب إلى مثل هذا السلوك، بل على العكس كثير منهم عَفَّ عن الطعام، ولم يحرص عليه، وكان ذلك مثار فخرهم وخصلة يعتزون بها، ولهذا ذكروها في أشعارهم كقول دريد بن الصمة:

وَإِنِّـي لَعَـفٌ عَـنْ مَطَـاعِمَ تُتَّقَـى وَمُكْـرِمُ نَفْسِـي عَنْ دَنِيَّاتِ مَأْكَلِ[٢]

وبلفظ العفة تحديدًا يسمو دريد عن الطعام، ويكرم نفسه من النزول إلى أخلاق التافهين الذين يرون الطعام غاية الحياة ومداها، ضاربين بالمكرمات والمثل عُرض الحائط.

وبتعبير مقارب يقول آخر:

وَإِنِّـي لَعَـفٌّ عَـنْ مَطَـاعِمَ جَمَّـةٍ إِذَا زَيَّنَ الفَحْشَاءَ للنَّفْسِ جُوعُهَا[٣]

وهذا بيت أبلغ من سابقه، إذ أثبت الشاعر لنفسه العفة، وتجرد عن الفحش الذي يزينه الجوع للنفس، وهذا دليل على ما قدمناه سابقًا من أن

---

(١) انظر في ذلك: كتاب الطعام في عيون الأخبار.

(٢) ديوان دريد بن الصمة الجشمي، جمع وتحقيق: محمد خير البقاعي، طبعة دار قتيبة، دمشق، ١٩٨١م، ص ٩٦.

(٣) التذكرة الحمدونية: ٩ / ٩٢.

الجوع ينزل ببعض النفوس إلى مستويات متدنية، كما أنه ينمي بعض المعايب الأخلاقية في البيئة الجاهلية.

ومن هذا أيضًا قول عنترة:

وَلَقَدْ أَبِيْتُ عَلَى الطَّوَى وأَظَلُّهُ حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيْمَ المَأْكَلِ(١)

وكذلك قال غيره:

وَأُعْرِضُ عَنْ مَطَاعِمِ قَدْ أَرَاهَا فَأَتْرُكُهَا وفي بَطْنِيّ انْطِوَاءُ(٢)

فقمة العفة أن يُعْرِضَ العربي عن الطعام وهو جائع، وهذا ما أكده عنترة وغيره. وهذه الفكرة تدحض عن عموم الجاهليين مسألة الحرص على الزاد والتكالب عليه، وتثبتها لقلة قليلة أعوزهم الفقر والحاجة إلى سلوك هذا المسلك، وفي مقابل هذه القلة كثرة دفعتهم نفوسهم الشريفة العفيفة إلى السمو والارتفاع عن خبيث الزاد كما سنتحدث عنه.

ولكي نتبين هذا العفاف والسمو في النفس الجاهلية نذكر أن من سننهم وأعرافهم وقت الأزمات والشدائد، ولكي يجنبوا أنفسهم ذل السؤال (الاعتفاد) وهو أن يعتزل المُمْلِق الناس حتى يهلك وأهله جوعًا. هذا ما ذكره ابن عباس رضي الله عنه في تفسيره لسورة قريش إذ قال: «وذلك أن قريشًا كانوا إذا أصابت واحدًا منهم مخمصة، جرى هو وعياله إلى موضع معروف، فضربوا على أنفسهم خباءً فماتوا، حتى كان عمرو بن عبد مناف،

---

(١) ديوان عنترة، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م ، ص ٢٤٩. الطوى: الجوع. أظله: أي أظل على الجوع نهارًا.

(٢) التذكرة الحمدونية: ٩ / ٩٢.

وكان سيدًا في زمانه، وله ابن يقال له: أسد، وكان له تِرْبٌ من بني مخزوم يحبه ويلعب معه. فقال له: نحن غدًا نعتقد ... فدخل أسد على أبيه يبكي، وخبره خبر تربه، فاشتد ذلك على عمرو بن عبد مناف، فقام خطيبًا في قريش، وكانوا يطيعون أمره، فقال: إنكم أحدثتم حدثًا تقلون فيه وتكثر العرب، وتذلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله جل وعز، وأشرف ولد آدم، والناس لكم تبع، ويكاد هذا الاعتقاد يأتي عليكم»[1].

وإنه لمن أصدق الدلائل على التعفف الجاهلي عن الطعام خاصة ما نجده عند بعض الفقراء من الصعاليك، الذين تمر عليهم الأيام وهم في كَبَدٍ من الجوع، وتمر عليهم أيام أخرى وهم من أغنى العرب، ومصداق ذلك قول الشنفرى:

وَأَطْوِي عَلَى الخُمْص الحَوايَا كَمَا انْطَوَتْ ... خُيُوطَةُ مَارِيٍّ تُغَارُ وتُفْتَلُ
وأغدو عَلَى القُوتِ الزهيد كَمَا غَدَا ... أَزَلُّ تَهَادَاهُ التَّنَائِفُ أَطْحَلُ
غَدَاَ طَاوِيًا يُعَارِضُ الرِّيْحَ هَافِيًا ... يَخُوتُ بأَذْنَابِ الشِّعَابِ ويَعْسِلُ[2]

فصعلوك شجاع كالشنفرى قادر على الكسب، وخوض غمار الحرب من أجل غنيمة تسد جوعه، لكن العفة في الطعام أليق به وببأسه وخصاله الفريدة التي لا يتحلى بها إلا الصعاليك.

---

(1) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تحقيق: د. عبد الله عبد المحسن التركي وآخرون، طبعة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م: ٢٢ / ٥٠٢ – ٥٠٣.

(2) ديوان الشنفرى، ص ٥٨– ٥٩. الحوايا: جمع الحوية، وهي الأمعاء. الماري: الفاتل. تغار: يحكم فتلها. الأزل: الذئب. التنائف: الأرض القفار. أطحل: لونه كالطحال. هافيًا: مسرعًا متمايلًا. يخوت: ينقض ويختطف. الشعب: الطريق في الجبل. الأذناب: الأواخر. يعسل: يمر مرًا سهلًا في استقامة.

وتبلغ هذه العفة في المأكل شأوها حتى تصل إلى التقليل من قيمة الطعام وذمه على ألسن الشعراء. وهذا خروج مسبب عن الواقع وهروب من الحياة الجائعة التي كان يعيشها عرب الجاهلية، إذ كيف بفقير معدم جائع أن يزدري عيشه؟ وقد مر بنا قول دريد "ومكرم نفسي عن دنيات مأكل" ويقول ربيعة بن مقروم:

وَلَقَدْ جَمَعْتُ المَالَ مِنْ جَمْعِ امْرِئٍ وَرَفَعْتُ نَفْسِي عَنْ لَئِيْمِ المَأْكَلِ(١)

وتأبى نفس أوس بن حجر إلا أن يترك خبيث الطعام ولا يشارك فيه، لأن الله أعف مطعمه وماله، يقول:

تَرَكْتُ الخَبِيْثَ لَمْ أُشَارِكْ وَلَمْ أَدِقْ وَلَكِنْ أَعَفَّ اللهُ مَالِي ومَطْعَمِي(٢)

فكل شاعر أَلْصَقَ بالطعام صفة ذميمة كالخبث واللؤم والدناءة، وفي ظني أن ذم الطعام مَجَازٌ عند الجاهليين، لا يقصدون به الطعام ذاته، وإنما يقصدون وسائل كسبه. فالسؤال والاستجداء والانكسار أمام الأغنياء من أجل الطعام ذلة لا يقبلها العربي لنفسه، وإن كان الطعام سيوصله لهذا الانحطاط المحطم لشرفه وكرامته بهذه الطريقة فحري به أن يذمه، لأنه أوصل الشرفاء وذوي الكبرياء إلى قاع الخسة.

---

(١) الأغاني: ٢٢ / ١٠٨.

(٢) ديوان أوس بن حجر، ص ١٢٢. أدق: بمعنى أذق، وهكذا وردت في بعض الروايات.

وقد عاش هذا الفكر في العقلية العربية، وترسخ فيها، حتى أوثقه بعضهم بالخرافات والقصص الشعبي، وذم الطعام على ألسنة الجن فضلًا عن البشر كما يقول شُمَير بن الحارث:

وَنَـارٍ قَـدْ حَضَـأْتُ بُعَيْـدَ هَـدْءٍ ... بِـــدَارٍ لاَ أُرِيْـــدُ بِهَـــا مُقَامَـــا
سِـــوَى تَحْليـــل رَاحِلَـــةٍ وَعَـــيْنٍ ... أُكَالِئُهَـــا مَخَافَـــةَ أَنْ تَنَامَـــا
أَتَـوْا نَـارِي فَقُلْـتُ مَنُـونَ أَنْـتُمْ ... فَقَـالُوا الجـنُّ قُلْـتُ: عِمُـوا ظَلاَمَـا
فَقُلْـتُ إلـى الطَّعَـامِ فَقَـالَ مِـنْهُمْ ... زَعِـــيْمٌ نَحْسُـــدُ الإِنْـــسَ الطَّعَامَـــا
لَقَـــدْ فُضِّـــلْتُمُ بِالأَكْـــلِ فِيْنَـــا ... وَلَكِـــنْ ذَاكَ يَعْقِـــبُكُمْ سُـــقَامَا
أَمِـطْ عَنَّـا الطَّعَـامِ فَـإِنَّ فِيْـهِ ... لآكِلِـــهِ النَّقَاصَـــةَ والسِّـــقَامَا[1]

خصب المخيلة عند هذا الشاعر جعلته ينظم هذه القصة الشعرية، ليصل إلى ذم الطعام على لسان الجن، واختلاق مثل هذه الأمور يعكس مدى الإيمان بها وتأصلها بالفكر، الذي من أجله سعى الشاعر لتوحيد رؤية الطعام وذمامته –على ما بينا– بين الإنس والجن.

وتذكر مصادر الأدب القديمة أن الزبرقان بن بدر التميمي عندما استعدى عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الحطيئة لقوله فيه:

---

(1) شعر ضبة وأخبارها في الجاهلية والإسلام، صنعه: د. حسن عيسى أبو ياسين، طبعة عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ١٩٩٤م، ص ١٢٩– ١٣٠. الشاعر هو شمير بن الحارث الضبي، شاعر جاهلي مقل، اختلف في اسمه فمنهم من يرويه بالسين(سمير). العباب الزاخر ص١٢٦. حضأت: أشعلت. هدء: الهدوء في الليل. تحليل راحلة: إقامتها بمقدار تحلة اليمين. أكالئها: أحرسها. منون: أي مَن أنتم.

دَعِ المَكَــارِمَ لاَ تَرْحَــلْ لِبُغْيَتِهَــا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي[1]

كانت حجته التي قالها للفاروق، مؤكدًا على هجاء الحطيئة له: «أوما تبلغ مروءتي إلا أن آكل وألبس»[2]. فأنفة العربي من اقتران اسمه بالحرص على الطعام وجهت شعره إلى التعفف فيه، وذمه في بعض المواطن، لأن ذلك قد يقود حرب الهجاء عليه، ويصبح مذمومًا في العرب من أجل زاد لو تخلى عنه، لمدح ووسم بالعفة.

ويزدري عمرو بن قميئة الحرص على الطعام، ويعبر عنه باليد تزاحم الأيدي المحتاجة الجائعة في إناء المائدة، فيقول:

وَأَهْـوَنُ كَـفِّ لاَ تَضِـيْرُكَ ضَـيْرَةً يَـدٌ بَـيْنَ أَيْـدٍ فـي إِنَـاءِ طَعَـامِ[3]

وهذا البيت دليل على عقول وأفئدة وألسنة تراقب تصرفات الرجال وتزدري أهونها وأخسها، وتزيد بأن توبخ صاحب هذا الفعل الذميم كقول حاتم:

لَحَــا اللهُ صُــعْلُوكًا مُنَــاهُ وَهَمُّــهُ مِنَ العَيْشَ أَنْ يَلْقَى لَبُوسًاومَطْعَمَا[4]

وقد أسهم انتشار مثل هذا الفكر بين عرب الجاهلية إلى شيوع بذل الطعام ودفعه للمحتاج، ويزيد من حدة هذه النظرة المتأرجحة للطعام بين

([1]) ديوان الحطيئة، ص ٢٨٤.

([2]) الأغاني: ٢ / ١٨٦.

([3]) ديوان عمرو بن قميئة، ص ٤٣. تضيرك: تضيمك.

([4]) ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي، ص ٢٣٩.

مقت التكالب عليه، وشرف بذله ومنحه فخر الجاهليين بشرف البذل، الذي عدوه منقبة لهم. يقول عمرو بن معد يكرب مقرًا لنفسه بالحِلْم وإفناء الزاد:

وَيَبْقَـى بَعْـدَ حِلْـمِ القَـوْمِ حِلْمِـي وَيَفْنَـــى قَبْـــلَ زَادِ القَـــوْمِ زَادِي[1]

ويقول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك:

لَبِيـبٌ أَعَـانَ اللُّـبَّ مِنْـهُ سَـمَاحَةٌ خَصِـيبٌ إِذَا مَـا رَاكِـبُ الجَـدْبِ أَوْضَـعَا
تَـرَاهُ كَصَـدْرِ السَّـيْفِ يَهْتَـزُّ للنَّـدَى إِذَا لَمْ تجِدْ عندَ امْرِئِ السُّوْءِ مَطْعَمَا[2]

وتتبلور هذه الفكرة بوضوح وصدق في أبيات يتقاسم نسبتها قيس بن عاصم التميمي[3] وحاتم الطائي[4]، ولا جدال في نسبتها إذا أدت الفكرة بجلاء وأثبتت ما نحن بصدد إثباته في هذا الموضوع. تقول الأبيات:

أَيَـا ابْنَـةَ عَبْـدِ اللهَ وابْنَـةَ مَالِـكٍ وَيَـا ابْنَـةَ ذِي البُـرْدَيْنِ والفَـرَسِ الـوَرْدِ
إِذَا مَـا عَمِلْـتِ الـزَّادَ فَالتَمِسِـي لَـهُ أَكُـيْلاً فَـإِنِّي لَسْـتُ آكُلُـهُ وَحْـدِي
كَرِيْمًـا قَصِـيًّا أَوْ قَرِيْبًـا فَـإِنَّنِي أَخَـافُ مَـذَمَّاتِ الأَحَادِيـثِ مِـنْ بَعْـدِي
وكَيْـفَ يُسِـيْغُ المَـرْءُ زَادًا وَجَـارُهُ خَفِيفُ المِعَى بادي الخَصَاصَةِ والجَهْدِ
وَلِلمَـوْتُ خَيْـرٌ مِـنْ زِيَـارَةِ بَاخِـلٍ يُلاحِـظُ أَطْـرَافَ الأكيـلِ عَلَـى عَمْـدِ
وَإِنِّـي لَعَبْـدُ الضَّـيْفِ مَـا دَامَ ثَاوِيًـا ومَـا فِـيَّ إلا تِلْـكَ مِـنْ شِـيْمَةِ العَبْـدِ

---

(1) شعر عمرو بن معد يكرب الزُبيدي، تحقيق: مطاع الطرابيشي، طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٤م، ص ٩٥.

(2) المفضليات، ص ٢٦٥. أوضع: أسرع.

(3) شعر بني تميم في العصر الجاهلي، ص ١٤٩.

(4) ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي، ص ٣١٢.

وهذه الأبيات على قلتها تجمع خيوطًا متعددة من رؤية الجاهليين للطعام. ابتداءً بطلب الأكيل المشارك، دون تحديد لانتمائه أهو من القبيلة، أم من الطارئين عليها. وهذا الكرم الجاهلي الذي تعارف عليه العرب قبل الإسلام، يكسبهم الثناء ويدفع عنهم الذم كما أكدته الأبيات. وفيها أيضًا إنكار استساغة المرء للزاد وجاره طاوٍ من الجهد والخصاصة، كما أنها تحث على طلب الرزق وعدم الخضوع للبخلاء الذين تحصي نظراتهم الأكل على طاعمه. وختام الأبيات بالتشبه بالعبد للضيف مروءة هذا الباب كله، إذ إن الضيف الذي جاوز الفلوات والمفاوز، ووصل إلى حي من الأحياء لا يفكر إلا بما يقيم أوده من الطعام، لكنه يفاجأ بسيد قد أصبح عبدًا له، يسهر على راحته، ويقدم له الطعام والشراب، ويقضي حاجته إن كان صاحب حاجة، وبهذا يكسب الجاهلي الحمد والثناء، ويدفع عنه الذم والهجاء، ويبرز نفسه في ميدان لا يبرز فيه إلا أهل الجود والكرم، وأصحاب النفوس السليمة، التي لم تدنسها شهوة الاستئثار، ولم يتملكها الجشع والحرص في زمن وجب فيه البذل والعطاء.

ومن ينسب الأبيات السالفة الذكر لقيس بن عاصم يذكر مناسبتها في خبر طريف أورده أبو الفرج، إذ يقول: «تزوج قيس بن عاصم المنقري منفوسة بنت زيد الفوارس الضبي، وأتته في الليلة الثانية من بنائه بها بطعام، فقال: فأين أكيلي؟ فلم تعلم ما يريد فأنشأ الأبيات...». فأرسلت جارية لها مليحة فطلبت له أكيلًا وأنشأت تقول له:

أَبَى المَرْءُ قَيْسٌ أَنْ يَذُوقَ طَعَامَهُ بِغَيْـــرِ أَكِيْـــلٍ إِنَّـــهُ لَكَـــرِيْمُ
فَبُورِكْتَ حَيًّا يَا أَخَا الجُوْدِ والنَّدَى وَبُورِكْـتَ مَيْتًـا قَـدْ حَوَتْـكَ رُجُـومُ[1]

ولعل هذه الأبيات، وإن صدرت من زوجة قيس، إلا أنها تؤكد نظرته للطعام، وتكسبه الثناء، لا ما كان يخشاه من مذمات الأحاديث.

وعلى خلاف هذه الزوجة الشريفة الكريمة، يكثر في شعر العرب ذكر اللائمات، وكثيرًا ما يكون لومهن لأزواجهن على الإطعام، مخافة أن يملق الزوج ويفتقر فيجوع صبيانها. ولعاطفة الأمومة دور في تكريس فكرة اللوم في الشعر، التي شب أورها مخافة الجوع، الذي هو أخطر ما يهدد الحياة الجاهلية في ذلك الوقت. ويدلنا الشعر نفسه على أن الطعام سبب في لوم الزوجة زوجها على البذل والمنح، ودليل ذلك أبيات لحطائط بن يعفر التميمي، يقول فيها ذاكرًا لوم زوجه على البذل:

تَقُـولُ ابْنَـةُ العَبَّـابِ رُهْـمٌ حَرَبْتَنِـي حَطَـائِطُ لَـمْ تَتْـرُكْ لِنَفْسِـكَ مَقْعَـدا
إِذَا مَـا جَمعْنَـا صِـرْمَةً بَعْـد هَجْمَـةٍ تَكُـونُ عَلَيْنَـا كَـابْنِ أُمِـكَ أَسْـوَدَا
فَقُلْـتُ وَلَـمْ أَعْـيِ الجَـوَابَ تَـأَمِلِي أَكَـانَ هُـزالاً حَتْـفُ زَيْـدٍ وأَرْبَـدَا
أَرِيْنِـي جَـوَادًا مَـاتَ هَـزْلاً لَعَلَّنِـي أَرى مَـا تَـرَيْنَ أَوْ بَخِـيْلاً مُخَلَّـدَا[2]

([1]) الأغاني: ١٤ / ٧٣. الرجوم والرجام: جمع رجمة وهي حجارة تنصب على القبر.

([2]) شعر بني تميم في العصر الجاهلي، ص ٢٩٧– ٢٩٨. الشاعر هو حطائط بن يعفر بن عبد الأسود بن جندل بن نهشل بن دارم بن زيد مناة بن تميم. شاعر جاهلي، كان كريمًا متلافًا، وهو شقيق للأسود بن يعفر الشاعر المشهور. والحطائط هو الصغير المحطوط من كل شيء. معجم الشعراء الجاهليين ص١١١. حربتني: سلبتني مالي. مقعد: مكان تقيم فيه وأنت ثري. الصرمة: القطعة من الإبل تصل إلى ثلاثين.

وذكر الهزال دليل على أن الأبيات لوم من زوجة لزوجها على الإطعام. ومع تمنع الزوج من قبول رأي اللائمة لقناعته الشخصية ينبع من ذلك دليلٌ عقلي يدافع فكرة الحرص والإمساك، وهو إتيان الموت على كل شيء، فالجواد لن يموت جوعًا، والبخيل ليس مخلدًا، والنهاية المحتومة موت الجميع، وهل كان موت زيد وأربد جوعًا؟

ومن المنطلق نفسه، والأدلة ذاتها يرفض عمرو بن شأس أن يَنصَاعَ للوم الزوجة ويقبل فكرها، بل يؤكد على مضيه في نهج يرى فيه شرفه ورفعته، إذ تقول:

وَعَاذِلَــةٍ هَبَّــتْ بِلَيْــلٍ تَلُــومُنِي ... فَلَمَّا غَلَتْ في اللَّوْمُ قُلْتُ لَهَا مَهْلاَ
ذَرِيْنِـي فَإِنِّي لاَ أَرَى المَوْتَ تَارِكًا ... بَخِــيْلاً وَلاَ ذَا جَــوْدَةٍ مَيِّتًــا هَــزْلا
مَتَى مَا أُصِبْ دُنْيَا فَلَسْتُ بِكَائِنٍ ... عَلَيْهَا وَلَوْ أَكْثَرْتِ عَاذِلَتِي قُفْلا[1]

وبأسلوب ساخر يرد ضمرة بن ضمرة على زوجته لومها، بأن إبله التي توصيه بحفظها لن تخمش وجوهها، وتعصب رؤوسها بالسواد حزنًا عليه إذا مات أو قتل، فلمَ يبقيها؟:

أَأُصِــرُّهَا وَبُنَــيُّ عَمِّــي سَــاغِبٌ ... فَكَفَــاكِ مِــنْ إِبَــةٍ عَلَــيَّ وَعَــابِ
أَرَأَيْـتِ إِنْ صَـرخْت بلَيْـلٍ هَـامَتِي ... وخَرَجــتُ مِنَهــا بَالِيًــا أَثْــوابي

الهجمة: مجموعة الإبل تصل إلى مادون المائة. كابن أمك أسودا: أي كأخيك الأسود في جوده وكرمه.

(1) شعر عمرو بن شأس الأسدي، ص ٤١. غلت: بالغت في اللوم.

هَلْ تَخْمِشَنْ إِبِلِي عَلَيَّ وُجُوهَهَا أَمْ تَعْصِبَنَّ رُؤُوسَهَا بِسِلابِ[1]

ومع إلحاح الزوجة اللائمة يزيد إصرار العربي على خذلانها، ورفض ما تقدمه وتطرحه من فكر لا يتماشى مع أخلاقياته التي قوامها الكرم والبذل بإفراط. وسبب ردها والإعراض عنها ما يراه من قتل لمروءته، ونسف لشرفه، وهدم لأركان العزة التي ولدت معه وكبرت في نفسه، وحرص عليها، فكيف له بعد هذا أن يسير في ركاب فكر يعمل على سلبها وإماتتها وهي ربيبة نفسه، وثمرة خلقه؟

ومن تعدد النظرة الجاهلية للطعام نتلمس خيوطًا تنم عن قداسة النظرة له، حتى يصبح رباطًا مقدسًا يوثق العرا بين المُطْعِم والمُطعَم، ويمنح من خلاله بعض الأشخاص حقوقًا عند قبائل لا تكون إلا لأفرادها.

وقد ذكر أبو الفرج في خبر طويل عن يوم جَبَلَة مفاده: أن عبسًا خرجت هاربة من ذبيان لا تدري أين تذهب، فأشار الربيع بن زياد العبسي عليهم أن يقصدوا بني عامر فيستجيروا بهم، فنزلوا على ربيعة بن شَكَل بن كعب بن الحريش، وكانت الرياسة في بني كلاب بن ربيعة فقال ربيعة: «يا بني عبس، شأنكم جليل، وذحلكم الذي يطلب منكم عظيم، وأنا أعلم والله أن هذه الحرب أعز حرب حاربتها العرب قط. ولا والله ما بد من بني كلاب

---

(1) شعر بني تميم في العصر الجاهلي، ص ٢٨٢. الشاعر هو ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل بن دارم بن زيد مناة بن تميم. كان من رجال تميم في الجاهلية لسانًا وبيانًا. كان اسمه شق بن ضمرة لدمامته وضآلة= جسمه وقصره، فسماه النعمان ضمرة بن ضمرة، على أبية وكان صديقًا له. وضمرة فارس شاعر شريف في قومه، وإليه قال النعمان (تسمع بالمعيدي لا أن تراه). معجم الشعراء الجاهليين ص١٩٣. الإبة: الخزي والعار. السلاب: عصائب سود.

فأمهلوني حتى استطلع طلع قومي. فخرج في قوم من بني كعب حتى جاؤوا بني كلاب ... فنزلوا على الأحوص بن جعفر فذكروا له من أمرهم. فقال لربيعة بن شَكَل أظللتهم ظِلكَ وأطعمتهم طعامك؟ قال نعم. قال: قد والله أجرت القوم! فأنْزلُوا القوم وسطهم بحبوحة دارهم»[1]. هكذا فهم سيد شريف كالأحوص بن جعفر أن إطعام الضيف ذي الحاجة، تلبية ضمنية لحاجته، لذلك ربط الأحوص بين إطعام ربيعة بن شَكَل لعبس، وبين قبوله إجارتهم، وأكد على هذا القبول بإقسامه بالله أن إطعامه لهم إجارة لهم أيضًا.

لعلنا بعد هذا نتساءل عن الرؤية الحقيقية، أو لنقل المعتدلة التي ينظر بها إلى الطعام في العصر الجاهلي، وكيف كان التعامل مع هذا المكون الدافع للجوع؟

إجابتنا على هذا التساؤل تبتدئ من أول حديثنا عنه، فلو تأملنا رؤيتهم العامة للطعام على ما فيها من تباين، لوجدنا أن الطعام لم يكن الغاية في حياتهم، ولم تتربَ نفوسهم على حبه الشديد، بل على العكس من ذلك، فقد وطنوا أنفسهم على الصبر والجلد في سبيله، ودفعه لمن هم أكثر حاجة منهم، لذلك نلمح ذلك التباعد بينهم وبين الزاد، يشهد بذلك تعففهم عنه، وبذله لغيرهم، وذمه في بعض المواطن، وهجاء ومعايرة الحريص المتكالب عليه، وكل ذلك يصدر من قناعة الفناء والنفاد، فناء الأرواح ونفاد الزاد.

يبقى بعد ذلك حقيقة أن الإنسان لا يستطيع العيش بلا طعام مهما كانت قناعاته ومُثُلُه، وقوة صبره واحتماله، فكيف عاش العرب قبل الإسلام

([1]) الأغاني: ١١/ ١٣٨.

على البعد من الزاد؟ الحق أنهم عاشوا على القليل الذي تحفظ به الحياة، وألزموا أنفسهم حد الكفاف، الذي يقيهم ذل السؤال وحر الجوع، وصرفوا ما زاد عن حاجتهم في المكرمات كالإطعام. ومصداق ذلك قول الشنفرى:

وَأَغْدُو عَلَى القُوْتِ الزَّهِيْد كَمَا غَدَا أَزَلُّ تَهَــادَاهُ التَّنَــائِفُ أَطْحَــلُ(١)

ومنه أيضًا قول الأعشى الباهلي في رثاء أخيه لأمه المنتشر بن وهب الباهلي بقوله:

تَكْفِيْــهِ حُــزَّةُ فِلْــذٍ إِنْ أَلَــمَّ بِهَــا مِنَ الشِّوَاءِ وَيُرْوِي شُرْبَهُ الغمرُ(٢)

ولمن لا يعرف المنتشر، فقد كان رئيسًا في قومه وسيدًا، ولو أراد أن يَطْعَمَ صباحه ومساءه ما نقص ذلك من ماله، لأن سادة الجاهلية عرفوا بعظم المال وكثرته، ومع هذا نجد كفافه شريحة من كبد ذبيحة شويت قناعة منه بذلك وهو السيد الشريف. وكذلك الشنفرى صرح أنه يغدو على القوت الزهيد، أي القليل، وهو صاحب نشاط في الغزو والغارة، التي تتيح له نصيبًا من الغنائم تفتح أمامه باب الأكل والطعام، ثم يرضى بالزهيد إما قناعة منه بذلك، وإما تعففًا وبذلًا.

وفي تراثهم النثري القائم على الحكمة، وبعد الغور في النفس الإنسانية ترشح مثل هذه الأفكار الموحية بأن الزاد كفاف لا تُخْمَةٌ وشبع. ومما يؤثر من أقوالهم قول أكثم بن صيفي بين يدي كسرى عندما وفد عليه

---

(١) ديوان الشنفرى، ص ٥٨.

(٢) الأصمعيات، ص ٩١. الحزة: ما قطع من اللحم طولًا. الفلذ: كبد البعير. الغمر: أصغر الأقداح.

مع بعض أشراف العرب: «يكفيك من الزاد ما بلغك المحل»[١]. فالزاد بلغة المرء في حياته، وبه يصل إلى مبتغاه، وتستمر حياته، ومع ذلك يكفيه منه القليل، ليصل إلى محل ما.

وجاء في أمثالهم قولهم: «الحكيمُ يَقْدَعُ النَّفْسَ بالكَفَاف»[٢]، أي أن صاحب الحكمة والعقل يمنع النفس ويروضها على الرضا بالقليل، وقبوله دون التطلع إلى الزيادة من كل شيء، ويرضى بكفافه وما يكفه عن وجوه الناس.

ومن الحسن ذكره في هذا المقام، ويدل دلالة واضحة على رؤية الكفاف، وتغليب الجاهليين لها في نظرتهم للزاد والطعام، أن من خصائص مدح الرجال في البيئة الجاهلية عدم الشبَع وقت الإضافة[٣]، وكثيرًا ما أثنت النساء على الرجال بهذه الخصلة، وعلى نقيضها بذم الرجال أيضًا.

فهذه النظرة مترسخة وأصيلة في الثقافة الجاهلية، وتعد بابًا من أبواب الشرف، لا يقبل الجاهلي أن يثلب من هذا الجانب، ويدعم ذلك كل ما قدمناه من حديث، ويشده تمكن نظرتهم هذه من تراثهم حتى نمت وانتشرت في أدبهم النثري والشعري، وفي طبائعهم وعاداتهم المتجذرة في مكامن نفوسهم.

---

(١) التذكرة الحمدونية: ٧ / ٤٠٠.

(٢) مجمع الأمثال، للميداني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة البابي الحلبي، القاهرة: ١ / ٣٨٢.

(٣) الأغاني: ١٨٥/١٧.

الباب الثاني

الجوع و الفـــــــــرد

الفصل الأول

مكافحة الجوع في العصر الجاهلي

ليس غريبًا على أي مجتمع أن ينظر فيما ينزل به من نوازل، ليتمكن من علاجها قبل وقوع الأضرار الجسيمة، بل الغريب ألا يكترث المجتمع لمشكلاته، ويدعها تستشري حتى تقضي عليه، وعلى أفراده المناط بهم دحض هذه المشكلات مهما كانت.

والمجتمع العربي في العصر الجاهلي كغيره من المجتمعات تلم به المشاكل وتعصف به المحن، فيسعى رجالات القبائل والحواضر إلى دفعها، وإيجاد حل لها. والجوع من أعظم مشاكلهم وأشدها خطرًا عليهم، لذا لا نجدهم يكتفون بحل واحد له، بل يضعون له عدة حلول يختارون أنسبها وأضمنها نجاحًا. ومهما فتشت في مشاكلهم وحلولها فلا أظنك واجدًا مثل الجوع كثرة في الحلول، ولو التفت إلى مشكلة القتل تجد حلولها الحرب والدية، ولو نظرت إلى سبي المرأة وأسر الرجل لوجدت الفدية والإطلاق والاسترقاق، وعلى ذلك مجمل مشاكلهم تتراوح بين حلول قليلة يُغَلَّبُ أفضلها بما يتماشى مع مصلحة يشترك في إقرارها الأفراد والزمان والمكان.

وفيما يلي سنتناول الأساليب التي بها جابه الجاهليون الجوع وسيطروا عليه، وأخضعوه حتى انتصروا عليه ولم يُودِ إلا بالقليلين منهم ذكرنا بعضهم فيما تقدم من هذه الدراسة.

الغزو:

لم توصف حياة بأنها حياة حربية قوامها الحرب والغزو كما وصفت الحياة الجاهلية، وهذه حقيقة نجد أصداءَها في شعرهم، وأخبارهم، وتلك

المادة المسماة بأيام العرب تتناثر في كتب الأدب القديمة، ويفرد لها الكتب، واهتم بها العلماء قديمًا وحديثًا على غرار اهتمام الجاهليين بها في ذلك الوقت، حيث كانت مادة السمر، ومحور الفخر، وحولها تدور الأشعار بمختلف موضوعاتها.

لم تكن حروب الجاهليين وأيامهم متعة يتسلون بها، ويقطعون سأم حياتهم بواسطتها، بل كانت مسببة في أعرافهم وتقاليدهم، وقد يضريها اعتداء القبائل على الماء والمراعي لقبائل أخرى، وقد تنشب من أجل الثأر، وربما بعثها حب المغانم والكسب الذي يتعيش به الغزاة في أوقات السلام والأمن، وإن كنت أظن أن الكسب والغنيمة من الأسباب المهمة التي تؤجج الحروب، إن لم تكن أهمها، وإن لبست لباس الثأر مرة، ولباس الدفاع عن حمى القبيلة مرة أخرى، فهي مندرجة تحت الأسباب العامة للحرب في الجاهلية، وأمرها مهم لأشخاص قد لا يعنيهم أمر الثأر الذي من أجله قامت الحرب.

ولا نكاد نجد حربًا قامت في الجاهلية إلا والغنيمة من أهدافها، بل من أجلها قامت هذه الحرب، لأن الغنيمة غالبًا ما تحقق الثراء للغانم، وتضمن له البقاء والاستمرار، وتوفر له العيش الذي يدفع به الجوع، فألفة العربي للغزو باعثه الإحساس بأنها السبيل الوحيد لاستمرار بقائه، فالحرب كانت ضرورة للحصول على العيش[1]. ويؤكد عروة بن الورد هذه الفكرة بقوله:

أَيَهْلَكُ مُعْتَمٌّ وَزَيْدٌ ولَمْ أَقُمْ عَلَى نَدَبٍ يَوْمًا وَلِي نَفْسُ مُخْطِرِ

(1) الفروسية في الشعر الجاهلي، نوري حمودي القيسي، طبعة مكتبة النهضة، بغداد، ط١، ١٩٦٤م، ص٨٠.

سَنُفْزِعُ بَعْدَ اليَأسِ مَنْ لا يَخَافُنَا كَوَاسِعُ فـي أُخْرَى السَوَام المُنَّفَرِ
يُطاعِنُ عَنْهَا أَولَ القَوْمِ بالقَنَا وبِيْضٍ خِفَافٍ ذَاتِ لَوْنٍ مُشَهَّرِ
فَيومًا عَلَى نَجْدٍ وغَارَاتِ أَهْلِهَا ويَوْمًا بِأَرْضٍ ذَاتِ شَثٍّ وعَرْعَرِ (١)

ومعتم وزيد حيان من عبس كانا على وشك الهلاك جوعًا، فندب عروة نفسه لهم وأغار معهم، طلبًا للغنيمة التي حازها، وقسم لأصحابه منها.

وفي السياق ذاته يقول الأعلم بن ضبيعة:

ويُزْرِي بِعَقْلِ المَرْءِ قِلَّةُ مَالِهِ وَإِن كَانَ أَقْوَى مِنْ رِجَالٍ وأَحْيَلاَ
فَإِنَّ الفَتَى ذَا الحَزمِ رَامٍ بِنَفْسِهِ جَوَاشِنَ هَذَا اللَّيْلِ كَيْ يَتَمَوَّلاَ(٢)

وهذه الشواهد تثبت أن الحرب القائمة من أجل الغنيمة ضرورة في الحياة العربية، ورفضها هلاك للرافض وأهله، فخير أن أغزو لسد الجوع، ولا أغزو لثأر لا يتعلق بي، والعرب تغزو لكليهما، وكلاهما يوصل للغنيمة.

ولقيمة الغنيمة التي يغنمها الغازي، وما لها من أثر في تغير حياته، لا يجد إشكالًا في الإغارة تحت أي ظرف، وفي أي فصل من فصول السنة حتى الصيف رغم حرارته الشديدة يغار فيه، وكان هذا ديدن السليك بن

---

(١) ديوان عروة بن الورد، ص ١٥٣– ١٥٤. معتم وزيد: من عشائر عبس. الندب: الخطر. كواسع: هي الخيل التي تطرد الإبل. السوام: الإبل. المنفر: المستنفر. المشهر: المشهور. الشث والعرعر: ضرب من الشجر.

(٢) ديوان بني بكر في الجاهلية، ص ٤٧٥. الشاعر هو عمرو بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة. والأعلم لقبه. قال عنه المرزباني جاهلي قديم. معجم الشعراء ص٨٣. أحيلا: كثير الحيلة. جواشن: جمع جوشن وهو الدرع أو الصدر. يتمول: ينمي ماله.

السُّلَكَة[١]، وفي الأغاني أنه اجتمع ناس من العرب بعكاظ، منهم قرة بن هبيرة القشيري، في سنين تتابعت على الناس فتواعدوا وتوافقوا أن لا يتغاوروا حتى يخصب الناس ثم قالوا: ابعثوا إلى المنتشر ابن وهب الباهلي ثم الوائلي فليشهد أمرنا، ولندخله معنا. فأتاهم فأعلموه ما صنعوا، قال فما يأكل قومي إلى ذاك؟ فقال له ابن جارم الضبي إنك لهنَّاك يا أخا باهلة؟ قال: أما أنا فالغسل والنساء عليَّ حرام حتى آكل من قمع إبلك. فتفرقوا ولم يكن إلا ذلك ... فأغار المنتشر على ابن جارم ... وأطرد إبله ورعاءها[٢]. ولنتبين قيمة الغنم عندهم تأمل قول المنشر: "فما يأكل قومي"، وهذا دليل على أن إيقاف الغزو هلاك لهم، وتأكيد أن الغزو دافعه جوعهم في معظم الأحيان، وقد عبروا عن ذلك في شعرهم. يقول عامر بن الطفيل:

وَجِئْنَـــا بالنِّسَـــاءِ مُرَدَّفَـــاتٍ وأَذْوَادٍ فَكُـــنَّ لنَـــا طَعَامَـــا[٣]

ويقول عمرو بن مالك التيمي:

وَنَحْنُ سَلَبْنَا البَكْرَ جَمْعًا مُكَوَّسَا فأَصْـبَحَ فِينَـا لَحْمُـهُ يُتَقَسَّـمُ[٤]

---

(١) الأغاني: ٢ / ٣٩٠.

(٢) الأغاني: ١٥ / ٢٣٠ – ٢٣١.

(٣) ديوان عامر بن الطفيل، ص ١١١. مردفات: أي سبايا. أذواد: جمع ذود من الإبل بين الثلاثة والعشرة.

(٤) ديوان بني بكر في الجاهلية، ص ٣٣٠. الشاعر هو عمرو بن ناشرة بن المستعر بن ماوية بن علي بن بكر بن وائل. شاعر قديم، وهو الذي أزال رياسة يشكر بن بكر بن ربيعة، وقتل فرخ النسر الذي كان ليشكر اللخمي، فانتقلت الرياسة إلى ولد ثعلبة بن

ويحاول السليك أن يبدد خوف صاحبه في الغارة بأن يذكره بغنيمته، وأن المكافأة ستكون لحمًا طريًا ومرقًا لذيذًا، لن يناله إذا لم يغزُ:

وخَوَّفَــهُ رَيْــبَ الزَّمَــانِ وفَقْــرَهُ ... بِــلاَدُ عَــدُوٍّ حَاضــرٍ وجُــدُوبُ
ونَـأْيٌ بَعِيـدٌ عَـنْ بِـلادِ مُقَـاعِسٍ ... وَإِنَّ مَخــارِيقَ الأُمُــور تُرِيْــبُ
فَقُلْـتُ لَـهُ: لا تَبْـكِ عَيْنُـكَ، إِنَّهـا ... قَضِـيَّةُ مَـا يُقْضَـى لَنَـا فَنَـؤُوبُ
سَيَكْفِيْكَ فَقْدَ الحَيِّ لَحْمٌ مُغَرَّضٌ ... وَمَاءُ قُدُورٍ فِي الجِفَانِ مَشُوبُ[1]

وفيما تقدم شاهد على توفير غنائم الحرب للطعام الذي هو غاية الجاهلي من غزوه، فلو كان شبعان في قومه ما عَرَّضَ نفسه لمخاطر الموت للحصول على رزقه وعيشه.

ولما تمثله الغنيمة من قيمة في الجاهلية كان كثير من الناس يسعى لها دون رابطة الدم التي من أجلها يتناصر أبناء القبيلة، حيث كان من السهل أن يشكل الغازي جيشًا من أخلاط العرب ويغزو بهم لتحقيق غايته بمقابل بسيط من الغنيمة إن غنموا، وفي يوم شعب جبله تبع بني تميم غثاءٌ من غثاء الناس يريدون الغنيمة[2]، وعندما قتلت بنو لحيان جارَ أبي جندب الهذلي جمع لهم جموعًا من بكر وخزاعة وأوقع بهم قتلًا وسبيًا[3]، ولعل هذا

عكابة وهو الحصن. معجم الشعراء ص٦١. البكر: الفتى من الإبل. المكوس: الكثيف.

(1) ديوان السليك بن السلكة، ص ٥٦، ٥٧. مخاريق الأمور: أصحاب الخبرة الذين يمرون في الأمور بسرعة. قضية: إمضاء الأمر وإحكامه. يقضى لنا: يقدر لنا. مغرض: طري. ماء القدور: المرق. مشوب: مخلوط.

(2) الأغاني: ١١ / ١٤٠.

(3) شرح أشعار الهذليين: ١ / ٣٥١.

الدافع من وراء تسمية هؤلاء بالمُرتزِقة لأنهم يطلبون رزقهم بهذه الطريقة التي ينكرها الانتماء إلى القبيلة ولا ينكرها العرف الذي تعود على شن الغارات الهادفة للرزق والعيش، وتحطيم صنم الجوع.

وكان من أمر الغنيمة وما وصل إليه شأنها في ذلك العصر إلى أن تحدث انقسامًا في صفوف المقاتلة إذا لم تقسم بالعدل. ففي إحدى غارات عبس على طيئ أصابت عبس نَعَمًا، فلما أرادوا القسمة قالوا لعنترة: لانقسم لك نصيبًا مثل أنصبائنا لأنك عبد. فلما طال الخطب بينهم كرت عليهم طيئ، فاعتزلهم عنترة وقال: دونكم القوم فإنكم عددهم(١)، وهذه دلالة على أن العصبية لا تكفي لخوص حرب ما لم يكن لها عائد اقتصادي للفرد وللقبيلة، وفي هذا تلتقي قبائل العرب كافة(٢).

وقد يتحلل الغازي من أجل الغنيمة عن الطاعة لسيد القبيلة إن هو فَرَّطَ في أمر تحصيلها، وكأنَّ الغزاة يرونها بعين، وفي الأخرى لا ينظرون إلا بؤسهم وجوعهم. ويروى أن قيس بن زهير العبسي سيد عبس أغار مع قومه على بني يربوع فأصاب سبيًا ومائة من الإبل، وفي هذه الغارة رأى الفرس داحسًا فأعجبه وأراده على القوم وصالحهم على أن يرد غنيمته وسبيه إليهم ويأخذ الفرس، فلما رأى ذلك أصحابه قالوا: لا نصالحك أبدًا، أصبنا مائة من الإبل وامرأتين، فعمدت إلى غنيمتنا فجعلتها في فرس لك تذهب به دوننا، فعظم في ذلك الشر حتى اشترى منهم غنيمتهم بمائة من الإبل(٣)،

---

(١) الأغاني: ٨ / ٢٤٧.

(٢) شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، د. أحمد كمال زكي، طبعة دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ٣١.

(٣) الأغاني: ١٧ / ١٩٣.

ولذلك كان السادة يعرفون حاجة مقاتلي قبائلهم للغنيمة، فيعجلون بقسمتها عليهم، وفي اليوم الذي قُتِلَ فيه عبد الله بن الصِّمَّة شقيق دريد وسيد بني جشم، وهو يوم اللِّوَى، وذلك لإقسامه وهو غير بعيد عن ديار غطفان التي غزاها وساق أموالها ألا يريم حتى يأخذ مرباعه وينقع نقيعه، فيأكل ويطعم ويقسم البقية في أصحابه(١). والقسمة والعدل فيها من الخصال التي تُمدح بالرجل، لأنها تؤكد سيادته في قومه، وتبين حرصه عليهم. وفي ذلك يقول زهير مادحًا هرم بن سنان:

يَنْـزِعْنَ إِمَّـةَ أَقْـوَامٍ لِـذِي كَـرَمٍ ... بَحْرٍ يَفِيضُ عَلَى العَافِينَ إِذْ عَدِمُوا
حَتَّـى تَـآوَى إِلـى لاَ فَـاحِشٍ بَـرَمٍ ... وَلاَ شَـحِيْحٍ إِذَا أَصْـحَابُهُ غَنِمُـوا
يَقْسِـمُ ثُـمَّ يُسَـوِّي القَسْـمَ بَيْـنَهُمُ ... مُعْتَـدِلُ الحُكْـمِ لا هَـارٍ وَلا هَشِـمُ(٢)

ومن الأمور التي لا بد من التنويه بها في هذا السياق، نظرة الأعراف والتقاليد الجاهلية للغزو والغارة، حيث لم تكن غاراتهم سرقة ولا عملًا مشينًا يلحق الشين والسبة بمن يقوم به، بل افْتُخِرَ بالغارات وعد المكثر منها (مغوارًا)، لما فيها من جرأة وشجاعة وإقدام ... فاختاروا الغارات والتعرض للقوافل سببًا من أسباب المعيشة والرزق، في حين كانت نظرتهم للسرقة القائمة على المغافلة والاستيلاء على الشيء دون علم صاحبه عيبًا عندهم وفيه جبن ونذالة(٣).

---

(١) الأغاني: ١٠ / ٢٨.

(٢) شرح شعر زهير بن أبي سلمى، ص ١٢٤– ١٢٥. الإمة: النعمة. البرم: الذي يأخذ من لحم الميسر. هار: ضعيف. الهشم: السريع الانكسار.

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥ / ٩٩ – ١٠٠.

وتنبثق من هذه الرؤية لشرف الإغارة والغزو حرصهم على الشجاعة وتسلحهم بها، وفخرهم بشجاعتهم وشجعانهم، فهي أداة الحرب الأولى ولا يغني عنها عدة وسلاح، إذا لم يكن الشخص في ذاته وتنشئته شجاعًا. فإن كان كذلك أعانه قومه في غزوه، كأن يهبونه سيفًا أو فرسًا يغزو بها، ليستفيد مالًا كما صنع الريان بن حويص العبدي الذي جعل فرسه هراوة موقوفة على الأعزاب من قومه، فكانوا يغزون عليها ويستفيدون المال ليتزوجوا، فإذا استفاد واحد منهم مالًا وأهلًا دفعها إلى آخر منهم[1].

ويلخص الدكتور نوري القيسي هذه الفكرة بقوله: «وما طريقة الحياة التي يحياها شعب من الشعوب إلا تفاعل بين العوامل الطبيعية وفعاليات الإنسان نفسه، فالبدوي إذا وجد خيلًا جيدة يركبها وسلاحًا قويًا يحمله أصبح الغزو عادة مستحكمة فيه، وعندما تحل فترات الجفاف وتهزل الحيوانات، لانعدام العشب ويحس بوطأة الجوع تطبق عليه يصبح الغزو وسيلة لابد منها للحصول على الطعام الذي يرد عنه غائلة الجوع، ولهذا أصبح الغزو عملًا مشروعًا يمارسه البدوي دائمًا، ويلجأ إليه باستماتة، كلما لاحت سنوات المحل وبدت مظاهر الجفاف»[2].

إن تغاورَ العرب فيما بينهم، وتمكن حب الغزو من نفوسهم، لهو أصدق دليل على شجاعتهم، وشجاعتهم بحد ذاتها مثالية في بيئة تعتد بالقوة وتعلي من شأنها، وتحقر الجبن والجبناء. ولو دققت النظر في هذه الشجاعة التي يكرسها الجاهلي في معظم الأحيان للغزو الذي يتبعه غُنمٌ، وجدت الجوع دافع الحرص على الغنيمة والغزو، ووجدته العنصر الأبرز لتمثل

(1) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥ / ٨٧.

(2) الفروسية في الشعر الجاهلي، ص ٤٦.

الشجاعة والدأب على تحصيلها بالمران، والوصول فيها إلى رتبة الفرسان والشجعان للانتصار عليه في المقام الأول.

ومن ثمرات الغنيمة التي تقود إلى خلق مثالي في ذلك العصر، أن أصحابها يعودون بها إلى قومهم، ليبذلوها فيما يعود عليهم بالحمد والثناء، وكثيرًا ما تُقدم للجياع والضيفان وطالبي العرف وقت إرمالهم كما يقول السليك:

إِذَا أَرْمَلُوا زَادًا عَقَرْتُ مَطِيَّةً تَجُرُّ بِرِجْلَيْهَا السَّرِيْحَ المُخَدَّمَا(١)

والسليك لا يعيش إلا من غزوه، لكن حرصه على الكمال الأخلاقي يقوده إلى التضحية بغنائمه وتقديمها للجياع من أصحابه وقومه.

ويرى علقمة بن عبدة أن إطعام الغنم خاصة أمر لصيق للنفس الشريفة، ولا يحرم منه إلا من لا قبل له بشرف ولا مجد كالبخيل الشحيح، أو العاجز عن الغنم، يقول علقمة:

وَمُطْعِمُ الغُنْمِ يَوْمَ الغُنْمِ مُطْعِمُهُ أَنَّى تَوَجَّهَ والمَحْرُومُ مَحْرُومُ(٢)

هكذا تأكدنا أن الغزو ومغنمه من سبل رد الجوع في الجاهلية، وبهما يكتسب العربي أجزاءً من الصورة المثالية التي يحلم أن يصل إليها.

---

(١) ديوان السليك بن السلكة، ص ٩٥. السريح المخدما: السير الذي تشد به النعل إلى الخدمة فوق الرسغ.

(٢) ديوان علقمة الفحل، تحقيق: لطفي الصقال ودرية الخطيب، طبعة دار الكتاب العربي، حلب، ط١، ١٩٩٩م، ص٦٦.

إطعام الطعام:

وهو العامل الثاني من العوامل التي اعتمد عليها الجاهليون في رفع الجوع عنهم. وفي الشعر الجاهلي لا نجد مادة شعرية تخص موضوع الجوع جاوزت ذكر المطعم وإطعامه. ففي تلك البيئة ينظر إليهما بسمو وتقدير يشهد به كثرة دورانهما في الأشعار.

إن فضيلة الكرم التي ينبع منها إطعام الطعام من مثاليات المجتمع العربي في الجاهلية، وهي من لوازم النفس العربية، لا يحيد عنها إلا شحيح مذموم. وقد سئل حاتم الطائي هل من العرب أجود منك، فتبسم وقال: كل العرب أجود مني[1]. وإن كانت هذه الإجابة تواضعًا من حاتم، فإن فيها كشفًا لتفشي الجود والكرم في العصر الجاهلي.

وإن كانت موجة الكرم تلبي حاجة الجياع بإطعامهم، فإنها تلبي حاجة المُطْعِم، وتوصله إلى ما يصبو إليه من مثالية تقدمه أخلاقيًا على كثير من منافسيه في الشرف والسيادة، وما فخره بإطعامه إلا إعلان منه بسيره في طريق المثالية والأخلاق الكريمة.

إن أكثر ما يلفت انتباهنا في موضوع الإطعام –غير كثرته في الشعر– شدة حرصهم على الفخر به، وكأن المطعم يقدم خدمة جليلة لبيئته ومجتمعه، ولا شك في ذلك إن كان سيدفع عنهم الهلاك جوعًا، لتزامن الإطعام مع الشتاء والسنوات في كل شعرهم. يقول عنترة مفتخرًا بقبيلة عبس:

---

(1) الفروسية في الشعر الجاهلي، ص١٢٨، نقلًا عن أوصاف الأشراف.

والْمُطْعِمُونَ إِذَا السِّنُونَ تَتَابَعَتْ مَحْلاً وضَنَّ سَحَابُهَا بِسِجَالِ[1]

ويقول أمية بن أبي الصلت:

المُطْعِمُونَ الطَّعَامَ فِي السَّنَةِ الأَزْ مَةِ والفَاعِلُونَ للزَّكَواتِ[2]

ويقول الشاعر نفسه:

وَهُمُ الْمُطْعِمُونَ إِذْ قَحِطَ القَطْ رُ وَحَالَتْ فَلاَ تَرَى قَزَعَهْ[3]

ويقول المرقش الأكبر:

بِيْضٌ مَفَارِقُنَا تَغْلِي مَرَاجِلُنَا نَأْسُو بِأَمْوَالِنَا آثَارَ أَيْدِيْنَا
المُطْعِمُونَ إِذَا هَبَّت شَآمِيَةٌ وخَيْرُ نَادٍ رَآهُ النَّاسُ نَادِيْنَا[4]

ويقول عمرو بن شأس:

الْمطْعِمُون إِذَا النُجُومَ خَوَتْ وأَحَاطَ بالمُتَوجِّدِ المَحْلُ
نَدَعُ الدَّنِيَّة أَنْ تَحُلَّ بِنَا ونَشُدُّ حِيْنَ تَعَاوَرَ النَّبْلُ[5]

---

(1) ديوان عنترة، ص ٣٣٨. سجال: جمع سجل وهي الدلو الضخمة المملوءة ماءً.

(2) ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق ودراسة: د. عبد الحفيظ السلطي، طبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧٤م، ص ٣٤٤.

(3) السابق، ص ٤١٨. القطر: المطر. حالت: أجدبت. قزعة: القطعة من الغيم.

(4) ديوان بني بكر في الجاهلية، ص ٥٩٦.

(5) شعر عمرو بن شأس الأسدي، ص ٣٦. خوت: سقطت ولم تمطر. المتوحد: البائس. المحل: الجدب والجفاف. تعاور النبل: أي في الحرب.

تظهر قيمة المطعمين عند العرب وقت الشدائد، وأيام المحل وفي الشتاء القارص، ومع اقتران إطعامهم بالنكبات تزداد مثاليتهم في أعين الجياع، الذين يدفع عنهم الجوع في الشدائد والملمات بفضل المطعمين وما يبذلونه لهم.

ومما يزيد صنيع المطعم عظمة في عين الجائع أنه يقدم في طعامه خير مأكل لهم، ولا يدخر عنهم شيئًا، ولا يكتفي بالقليل، وإنما يملأ حياضه وقدوره وجفانه لحمًا وشحمًا، وهذا منتهى الكرم وغاية الجود كما يتصورها الجاهلي صاحب المروءة، وكما يتلازم في شعرهم كرم المطعم وجوده وما يبذله من لحوم هي نفيس مال العربي في العصر الجاهلي، وفي هذا يقول أعشى قيس:

المُطْعِمُو اللَّحْمَ إِذَا مَا شَتَوا ... والجَاعِلُو القُوتَ عَلَى اليَاسِرِ
مِنْ كُلِّ كَوْمَاءَ سَحُوفٍ إِذَا ... جَفَّتْ مَنَ اللَّحْمِ مُدَى الجَازِرِ[1]

وفي أمر الإطعام وما له من شرف في الحياة العربية يبرزها الشعر الذي يجمع المثالية للمطعم حين يُوَفِّق في كرمه بين حب الإطعام، والأزمة التي من أجلها أطعم، ونفاسة المطعوم، وكل هذه جمعها الأعشى لممدوحه.

ويبالغ طرفة بن العبد في فخره بقومه، الذين يصفهم بِطُرَّادِ القَرَمْ، والقرم الشهوة للحم خاصة، فهم طرادها في الشتاء بنحرهم للإبل ذات الشحم الكثير، يقول:

---

(1) ديوان الأعشى الكبير، ص ١٤٥. الياسر: الذي يلعب الميسر. الكوماء: الناقة الضخمة. السحيفة: طبقة الشحم والجمع سحائف. المدى: جمع مُدية وهي السكين. الجازر: الجزار الذي يذبح.

نُقُــلٌ للشَّــحْمِ فِــي مَشْــتَاتَنَا نُحُــرٌ للنِّيْــبِ طُــرَّادُ القَــرَمْ[1]

وعلى غرار بيت طرفة نجد سويد بن أبي كاهل يفخر بقومه، فيثبت لهم سجية الإطعام من جملة خصال تغذي مثاليتهم، يقول سويد:

وَإِذَا هَبَّــتْ شِــمَالاً أَطْعَمُــوا فِــي قُــدُورٍ مُشْــبَعَاتٍ لَــمْ تُجَــعْ
وجِفَــانٍ كَــالجَوابِي مُلِئَــتْ مِـنْ سَـمِيْنَاتِ الـذُّرَى فِيْهـا تَـرَعْ[2]

ويظهر لنا من خلال ما تقدم من شعر أن الإطعام يشتد بوضوح، ويقبل عليه الأجواد والكرماء في النوائب والشدائد، وفي أزمان تصبح فيها وجبة الطعام تساوي الحياة كلها، فبهذا يصبح الإطعام من ركائز دفع الجوع ووسيلة مثمرة في قتله[3].

ولتأصل فكرة الإطعام في النفس العربية نراهم يتواصون بها، ومعلوم أن الوصية لا تكون إلا في الأمر المهم، الذي لابد للمُوصَى من لزومه، وقد جاء في وصية عمرو بن الغَوث لبنيه قوله: «وكلوا من الطعام وأطعموه»[4]،

---

(1) ديوان طرفة بن العبد، ص١٣٤. المشتاة: موضع الإقامة وقت الشتاء. النيب: جمع ناب، وهي المسنة من الإبل، وتكون أكثر شحمًا من غيرها. القرم: شهوة اللحم.

(2) المفضليات، ص ١٩٤. الجوابي: الحياض الكبار التي يجبى فيها الماء، الواحدة جابية. الذرى: جمع ذروة، وذروة كل شيء أعلاه، وأراد الأسنمة. الترع: الامتلاء.

(3) الضيافة وآدابها في الشعر العربي القديم، د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك، طبعة مطابع الفرزدق، الرياض، ط١، ١٩٩٣م، ص ٥٤.

(4) المعمرون والوصايا، لأبي حاتم السجستاني، تحقيق: عبد المنعم عامر، طبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٦١م، ص ١٢٥.

كما أوصى عبقر بن أغار ولده فقال: «وإذا أكلتم فأوتروا، وإذا شربتم فانبروا، وأبيحوا ما يؤكل فإن منعه ألأم اللؤم»[١].

ومن شعرهم الموصي بإطعام الطعام قول الأسود بن يعفر:

وَإِنِّي لأَقْرِي الضَيْفَ وَصَّى بِهِ أَبِي وَجَارُ أَبِي التَّيْحَانِ ظَمْآنُ جَائِعُ[٢]

ومنه قول حبيبة بنت عبد العزى:

أُوْلِي عَلَى هُلْكِ الطَعَام أَلِيةً أَبَدًا وَلَكِنِّي أَبِيْنُ وأَنْشُدُ
وَصَّى بِهِ جَدِّي وعَلَّمنِي أَبِي نَفْضَ الوِعَاءِ وكُلُّ زَادٍ يَنْفَدُ[٣]

لا تزيد هذه الوصايا على الإطعام إلا مدى حرصهم عليه، وأن سجاياهم الحميدة يورثها الآباء للأبناء، بغية الوصول إلى مجتمع مثالي يقدس الخصال السمحة والأخلاق الدمثة، لارتفاعها بالإنسان وكرامته ومد يد العون لكل مرمل ومحتاج ليقف أمام عاصفة الجوع الجامحة.

ولنتبين ذلك السمو الأخلاقي في العصر الجاهلي فيما يخص مسألة الإطعام، انظر إلى رثائهم للمطعم، فبعد موت الرجل نجد الندب عليه بخلال

---

(١) السابق، ص ١٢٦.

(٢) الأغاني: ١٣ / ٢٦.

(٣) أشعار النساء، لأبي عبد الله المرزباني، حققه وقدم له: د. سامي مكي العاني، وهلال ناجي، طبعة دار الرسالة، بغداد، ١٩٧٦م، ص١٦٢. الشاعرة هي حبيبة بنت عبد العزى بن حذار الناصرية، وهي العزراء من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان بن بغيض، شاعرة كريمة، كان لها ابن قانص بخيل وجهت إليه الأبيات السابقة. المؤتلف والمختلف ص١٣٤. أولي: أحلف. أبين: أبينّ. أنشد: أظهر.

كثيرة منها الإطعام، وهو –في ظني– يعادل الشجاعة والنسب في ميزان القيم الجاهلية، ورثاؤهم للمطعمين يعكس تقديرهم وإجلالهم لهذه الشخصية التي خسرها مجتمعهم، فكان لابد من رثائها عرفانًا بالجميل. ويكثر هذا اللون من رثاء المطعم في أشعار النساء خاصة، لما لهذه القيمة من أثر في حياتهن. تقول هند بنت عتبة في رثاء أبيها:

يَا عَيْنُ بَكِّي عُتْبَةْ ... شَيخَاً شَدِيْدَ الرَّقَبَةْ
يُطْعِمُ يَوْمَ المسْغَبَةْ ... يَدْفَعُ يَوْمَ المَغْلَبَةْ[1]

وتقول جنوب الهذلية في رثاء شقيقها عمرو ذي الكلب:

ولَيْلَةٍ يَصْطَلِي بالفَرْثِ جَازِرُهَا ... يَخْتَصُ بالنَفَرِ المُثْرِيْنَ دَاعِيهَا
لا يَنْبَحُ الكَلْبُ فِيْهَا غيرَ وَاحِدَةٍ ... حَتَّى الصَبَاحِ ولا تَسْرِي أَفَاعِيْهَا
أَطْعَمْتَ فِيهَا على جُوعٍ ومَسْغَبَةٍ ... شَحْمَ العِشَارِ إِذَا مَا قَامَ بَاغِيْهَا[2]

فهذه المرأة الجاهلية تنظر أن شرف الأب أو الأخ ينهض على الإطعام، وقت شُح الطعام في أيام المجاعات، وهذا من أثر الجوع في نفسها

---

(1) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص١٣٢.

(2) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص ١٠٤. الشاعرة هي جنوب بنت العجلان بن عامر بن برد بن منبه بن لحيان بن هذيل. وهي شقيقة الصعلوك الهذلي المشهور عمرو ذي الكلب. لها قصائد حسان في شرح أشعار الهذليين، تكثر فيها من البكاء على أخيها الذي خرج من قومه ولم يرجع. شرح أشعار الهذليين ٥٧٨/٢. يصطلي بالفرث: يدخل يديه ورجليه بالكرش من شدة البرد. المثرين: أهل الثروة. المسغبة: الجوع. العشار: النوق.

ولا شك، ومن إعجابها الشديد بمحارمها الذين تحاول إثبات الشرف والسيادة لهم.

ولتعظيم أمر المُطْعِم في مجتمعه وقبيلته يأتي الجاهلي في رثائه له بخوارقٍ لا يقبلها العقل ولا يصدقها، لكن قيمته في الحياة فرضت هذه المبالغات الشديدة لتوقيره وحفظ مكانته. يقول أوس بن حجر:

يَا عَيْنُ جُودِي عَلَى عَمْرو بنِ مَسْعُودِ أَهْلِ العَفَافِ وأَهْلِ الحَزْمِ والجُودِ
أَوْدَى رَبِيْعُ الصَّعَالِيكِ الأُلَى انْتَجَعُوا وكُلُّ مَا فَوْقَهَا مِنْ صَالِحٍ مُوْدِي
المُطْعِمُ الحَيَّ والأَمْوَاتَ إِنْ نَزَلُوا شَحْمَ السَّنَامِ مِنَ الكُوْمِ المقاحِيدِ[1]

فإن كانت مكانة المطعم قد بلغت هذا الشأو من الإجلال والتقدير، فلا عجب أن فخرهم يمتد ليطال التباهي والتغني بقتله، إذ إن قتل عظيم القوم ليس كقتل غيره، بل غيره مما يترفع الفارس عن قتله، لأنه من شرار الناس وليس من الصالحين كالمطعم الذي يُفْخَرُ بقتله. يقول عمرو بن معد يكرب:

فَلَمْ نَقْتُلْ شِرَارَهُمُ ولَكِنْ قَتَلْنَا الصَّالِحِيْنَ ذَوِي السِّلاحِ
قَتَلْنَا مُطْعِمَ الأَضْيافِ مِنْهُمْ وأَصْحَابَ الكَرِيْهَةِ والصِبَاحِ[2]

---

(1) ديوان أوس بن حجر، ص ٢٥. الصعاليك: الفقراء. مودي: هالك. الكوم: جمع كوماء وهي الناقة السمينة. المقاحيد: جمع مقاحد وهي الناقة العظيمة السنام.

(2) شعر عمرو بن معد يكرب الزُبيدي، ص ٦١. أصحاب الكريهة والصباح: فرسان الحرب والغارات.

وفي تقديم مطعم الأضياف في القتل على الفرسان والمحاربين، دليل على أهميته ومكانته الاجتماعية، فموته أو قتله في الحروب مصاب وفاجعة عظيمة، وسقوط لعمود من أعمدة الإحسان والبر في قبيلته والبيئة الجاهلية. والشاعر الجاهلي يدرك هذه القيمة، ولذلك يفخر بأن فَجَّع الأهل والقبيلة بقتل مطعمهم كما يقول عمرو بن كلثوم:

فَجَعـــتُهُم بِخَيْـــرِهِمُ نَـــدِيْمًا وأَطْعَمِهِـمْ لَـدَى قَحْـطِ القِطَـارِ[1]

وعلى أي حال قتل هذا المطعم أو مات، فإن له شأنًا عظيمًا وأمرًا محمودًا وذكرًا عطرًا في أذهان العرب، يحفظه له جوده وضيافته[2]، وحسه النبيل بالمعوزين الجياع من أبناء الحي والطارئين عليه من الأضياف وعابري السبيل والجيران.

ومن غرائب العرب في مسألة الإطعام كثرة الولائم التي كانوا يقيمونها، فلكل مناسبة وليمة خاصة قد عد بعضها الجاحظ عندما تحدث عن الطعام عند العرب فقال: «الطعام ضروب، والدعوة اسم جامع، وكذلك الزلَّة. ثم منه العرس والخرس والإعذار والوكيرة والنقيعة. والمأدبة اسم لكل طعام دعيت إليه الجماعات»[3]، ويوصلها بعضهم إلى ست عشرة وليمة[4]، ولن نفهم من كثرة هذه الولائم رغد العيش ورفاهيته، بل نفهم حقيقة كون

---

(1) ديوان عمرو بن كلثوم التغلبي، تحقيق: أيمن ميدان، طبعة النادي الأدبي الثقافي بجدة، ط١، ١٩٩٢م، ص ٢٦٤.

(2) الضيافة وآدابها في الشعر العربي القديم، ص ٩.

(3) البخلاء، ص ١٩٥.

(4) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٤ / ٦٨٥.

الإطعام وسيلة من وسائل دفع الجوع الضارب في أنحاء الجزيرة العربية، التي تدل هذه الولائم وكثرتها على انتشاره وتفشيه.

ومن غريب أخبارهم في الإطعام أن يطعم الرجل أعداءه ومن يقاتله إذ يقول أبو الفرج عن الحرب التي دارت في المدينة بين أحيحة بن الجُلاح وبين التبع اليماني أبي كَرِبِ بن أسعد الحميري: «فجرد له كتيبة من خيله – أي تبع– ثم أرسلهم في طلبه فوجدوه قد تحصن في أُطُمه. فحاصروه ثلاثًا؛ يقاتلهم بالنهار ويرميهم بالنبل والحجارة، ويرمي إليهم بالليل بالتمر، فلما مضت الثلاث رجعوا إلى تبع فقالوا: بعثتنا إلى رجل يقاتلنا بالنهار، ويضيفنا بالليل! فتركه»[1].

وللقارئ أن يُدهش من هذا الخبر كدهشة جنود تبع الذين أضافهم أحيحة، إلا أن المثالية تزيل الدهشة من هذا الخبر، فللعقل أن يصل إلى نتيجة مخالفة أحيحة أسس الحرب التي تقوم على نفي العدو وإبعاده، لكن روح العربي الطامحة إلى الرقي والمثالية ترى غير ذلك، ترى أن سيدًا كأحيحة حاصره قوم يريدون قتاله، فنظر إليهم نظرة الضيف النازل فأكرمهم ليلًا وحاربهم نهارًا. وفيه يقول الشاعر:

رأَيْتُ أَبَا عَمْرٍو أُحَيْحَةَ جَارُهُ ... يَبِيْتُ قَرِيْرَ العَيْنِ غَيرَ مُرَوَّعِ
ومَنْ يَأْتِهِ مِنْ خَائِفٍ يَنْسَ خَوْفَهُ ... ومَنْ يَأْتِهِ مِنْ جائعِ الجوفِ يَشْبَعِ[2]

فنحن أمام رجل مثالي في عصره، يؤمن الخائف ويجير الطريد، ويشبع الجائع، فهل نتعجب بعد هذا من إطعامه جند تبع الذين قاتلوه؟

---

(1) الأغاني: ١٥/ ٣٨ وما بعدها.

(2) السابق: ١٥ / ٤٩.

وفي كلمة تكتب بماء الذهب، ويتوجب على كل عربي حفظها، وهي جماع أمر مثاليتهم في هذا الباب قالها النعمان في بلاط كسرى مدافعًا عن العرب إذ يقول: «وأما سخاؤهم فإن أدناهم رجلًا للذي عنده البكرة يكون عليها بلاغه في حمولته وشبعه وريه، فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزئ بالسربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج له عن دنياه كلها فيما يكسبه من أحدوثة الشكر وطيب الذكر»[1].

إن من قرأ شعر العرب وأخبارهم لن يتبين إلا صدق قول النعمان السابق، ومن تَدَبَّرَ صدق هذه الأقوال والأشعار، وانبعاثها من نفوس كريمة شريفة فسيقر لهم بالمثالية التي لن يعدوها إلا من حاد عن الحق.

الصيد:

وهذا باب آخر من أبواب الرزق والعيش في حياة عرب الجاهلية، وهو أقل الأبواب طرقًا من الجاهليين، لصعوبته وسهولة غيره، ولأنه متصل بشكل مباشر بالصحراء والإيغال فيها طلبًا للصيد الذي قد يصبح هلاكًا عند من لا يعلم مساربها ودروبها. لهذا عول العرب على الغزو والإطعام أكثر من تعويلهم على الصيد، وإن كنا نجد منهم محترفين لهذه المهنة إلا أنهم قلة، وفي كثير من الأحيان يأخذونها رياضة لا عيشًا.

ومن مفارقات هذا الباب قول بازيار العزيز بالله الفاطمي: «وإنه لا يكاد يحب الصيد ويؤثره إلا رجلان متباينان في الحال، متقاربان في علو الهمة، إما ملك ذو ثروة، أو زاهد ذو قناعة، وكلاهما يرمي إليه من طريق الهمة، إما لما تداوله الملوك من الطلب، وحب الغلبة والظفر، وموقع ذلك

([1]) التذكرة الحمدونية: ٧ / ٤٠٦.

من نفوسهم، أو للطرب واللذة والابتهاج بظاهر العتاد والعدة. والفقير الزاهد لظلف نفسه عن دني المكاسب، ورغبتها عن مصرع المطالب وحقنه ماء وجهه عن غضاضة المهن، وتقاضي أُجرة العمل، فمن هذه الطبقة من يقتات من صيده»[1]، وشتان بين ملك يخرج متمتعًا متريضًا للصيد، وبين فقير يحدوه جوعه وجوع عياله إليه. فهمة الفقير في تحصيل الصيد أشد من همة الملك، لأن الملك لا يحسب لطعامه كما يحسب الصعلوك.

وتشير دلائل كثيرة إلى اتخاذ العربي الصيد معيشة وكسبًا يرد به أذى الجوع، وعن أولاده قسوة الحرمان من الطعام، يقول ربيعة بن مقروم:

فَصَبَّحَ مِنْ بَنِي جلاَّنَ صِلًّا ... عَطِيْفَتُهُ وأَسْهُمُهُ المَتَاعُ
إِذَا لَمْ يَجْتَزِرْ لِبَنِيْهِ لَحْمًا ... غَرَيْضًا مِنْ هَوَادِي الوَحْشِ جَاعُوا[2]

ويحكي لنا صخر الغَي الهذلي في شعره قصة صائد اضطرته إعالة شيخ كبير ساغب إلى الصيد، فاصطاد أروى سمينة ظن أنها تنعش شيخه حتى يغاث الناس من الجدب، يقول صخر الغي:

أُتَيْحَ لَهُ يَوْمًا وقَدْ طَالَ عُمْرُهُ ... جَرِيْمَةُ شَيْخٍ قَدْ تَجَنَّبَ سَاغِبِ
يُحَامِيَ عَلَيْهِ فِي الشِّتَاءِ إِذَا شَتَا ... وفِي الصَيْفِ يَبْغِيه الجَنَا كَالمُناحِبِ
فَلَمَّا رآهُ قَالَ للهِ مَنْ رَأَى ... مِن العُصْمِ شَاةً قَبْلَهُ فِي العَوَاقِبِ
لَوْ انَّ كَرِيْمِي صِيْدَ هَذا أَعَاشَهُ ... إِلَى أَنْ يَغِيْثَ النَّاسَ بَعْضُ الكَوَاكِبِ

---

(1) البيزرة، لأبي عبد الله الحسن الفاطمي، نظر فيه وعلق عليه: محمد كرد علي، مطبوعات المجمع العلمي العربي، بدمشق، ص ١٩.

(2) المفضليات، ص ١٨٩. الصل: الداهية. عطيفته: قوسه. الغريض: الطري. هوادي الوحش: متقدمتها وأوائلها

أَحَـاطَ بـهِ حتَّـى رَمَـاهُ وقَـدْ دَنَـا بأَسْـمَرَ مَفْتُـوقٍ مِـنَ النَّبْـلِ صَـائِبِ
فَنَـادَى أَخَـاهُ ثُـمَّ طَـارَ بشَـفْرَةٍ إِلَيْـهِ اجْتِـزَارِ الفَعْفَعِـيّ المُنَاهِـبِ[1]

ولا شك في اتصال الصيد بالجوع في الثقافة العربية، وإليه يخرج من تمرس عليه ومهر به، ليشبع نفسه وأهل بيته، وقد ينظر إليه بمنظور تهذيبي، يقوم الأخلاق ويهذبها، ويكسبها من الصبر والجلد ما يعين على استمرار الحياة، والوقوف أمام قسوتها. ويُنْقَل عن بعض الممتهنين للصيد قوله: «وقلما رأيت صائدًا إلا تبينت فيه من سيما القناعة، وعلامة الزهد والصيانة، ما لا نتبينه في غيره من سائر المخالطين للناس»[2].

وقد اشتهر جماعة من الجاهليين على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية بكلفهم بالصيد، وحبهم له، كرؤساء العرب وصعاليكها، وبعض الشعراء[3]. ومن أبرز هؤلاء الشعراء امرؤ القيس بن حجر الكندي، وكان يفخر بالصيد ويصفه في أكثر شعره بأنه مرزوق منه مظفر فيه، كقوله:

---

(1) شرح أشعار الهذليين: ١ / ٢٤٩ – ٢٥٠. الشاعر هو صخر بن عبدالله الخيثمي، أحد بني خيثم بن عمرو بن الحارث بن سعد بن هذيل. لقب بصخر الغي لخلاعته، وشدة بأسه، وكثرة شره. وهو من صعاليك هذيل المشهورين. الأغاني ٣٤٧/٢٢. جريمة شيخ: كاسب شيخ، أي صائد يكسب لأبيه. تحنب: احدودب. ساغب: جائع. الجنا: هو ما اجتني من الثمر. المناحب: المجاهد. العصم: الأروى. كريمي: شيخي. بأسمر: أي سهم مخلق. مفتوق من النبل: سهم واسع النصل. صائب: قاصد. شفرة: سكين. الفعفعي: الخفيف. المناهب: المبادر.

(2) البيزرة، ص ٢٠.

(3) الصيد والطرد في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، د. عباس الصالحي، طبعة دار السلام، بغداد، ط١، ١٩٧٤م، ص ١٢ وما بعدها.

إِذَا مَـا خَرَجْنَـا قَـالَ وِلْـدَانُ أَهْلِنَـا تَعَالَوا إِلَى أَنْ يَأْتِنَا الصَّيْدُ نَحْطِبِ[1]

وله أيضًا في الصيد، قوله:

مُطْعَـــمٌ للصَّـــيْدِ لَـــيْسَ لَـــهُ غَيْرَهَـــا كَسْـــبٌ علـــى كِبَـــرِهْ[2]

وفـي البيتـين دلالـة علـى أن الصـيد كسـب ورزق للجـاهلي، إلا أن البيت الأول يضـع امرأ القيس في مكانـه من المُلك الذي ينظر فيه صـاحبه للصيد على أنه رفاهية ونوع من أنواع الرياضات في ذلك العصر.

ويروي أبو الفرج في أخبار الحادرة الشاعر أنه كان يخرج للصيد مع صديقه زبان الفزاري فيصطادان جميعًا ويشتويان ويأكلان[3].

ومن الذين أسلموا، وكانوا قد ذكروا صيد الكلب في شعرهم لبيد بن ربيعـة العـامري، الـذي يؤكـد بعـد وصـفه المقتضـب للطـرد أن الصـيد حـق وطعمة للكلب لا ينكص عنه إلا جبان، يقول:

عَـوَابِسَ كالنُّشَّـابِ تَـدْمَى نُحُورُهَـا يَـــرَيْنَ دِمَـــاءَ الهَادِيَـــاتِ نَـــوَافِلا
فَجَـالَ ولَـمْ يَعْكِـمْ لغُضْـفٍ كأَنَّهَـا دِقَـاقُ الشَّـعِيْلِ يَبْتَـدِرْنَ الجَعَـائِلا

(1)أمـالي المرتضـى، للشـريف المرتضـى، تحقيـق: محمـد أبـو الفضـل إبـراهيم، طبعـة الحلبي،القاهرة، ط١، ١٣٧٣م ١٩١/٢.

(2) ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف، القاهرة، ط٥، ص ١٢٦.

(3) الأغاني: ٣ / ٢٦٨.

لِصَائِدِهَا فِي الصَّيْدِ حَقٌّ وطُعْمَةٌ وَيَخْشَى العَذَابَ أَنْ يُعَرِّدَ نَاكِلا[1]

وقد لا يكون من هم هذا البحث أن يفصل القول في الصيد، وإنما يحاول إثبات أن الصيد وسيلة من وسائل مكافحة الجوع والمثالية الناجمة من مزاولته في نفس العربي. وقد ذكرنا في بداية حديثنا عنه، أن الصيد إلى جانب رد الجوع يكسب النفس العربية غير قليل من الجلد والصبر التي يحتاجهما للتعايش مع البيئة، إذ إن الصيد لم يكن في الأحياء والحواضر، بل في الفلوات والصحاري، ولم يكن له موسم معين، وقد يمارسه مُمَارسة في الحر والبرد، وتحت وابل المطر، وفي أشعة الشمس المحرقة[2]، كل هذه المناخات المختلفة تنحت إنسانًا خشنًا صلبًا قادرًا على تحمل الشدائد، والخروج من أحلك المصاعب، ليرى في الصيد انتصارًا يعطيه أملًا وقناعة بالانتصار على كل خطر بما فيها الجوع.

وللمزرد بن ضرار أبيات يؤكد لنا فيها أن فقد عدة الصيد قد تؤدي إلى الجوع، وهو يحكي لنا فيها قصة صائد فَقَدَ كلابه، فانعكس ذلك سلبًا على صاحبها وأهله، إذ نالهم الجوع فلم يكن لهم سوى الماء شرابًا وطعامًا[3].

---

(1) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ص ٢٤٠. كالنشاب: في اندفاعها وإصابتها الهدف. العوابس: صفة للكلاب. الهاديات: أوائل الوحش. نوافل: مغانم. يعكم: يرجع. الشعيل: جمع شعيلة وهي الفتائل. الجعائل: ما جعل للكلاب من رزقهن. عرد: ترك القصد وانهزم. نكل: نكص وجبن.

(2) الصيد والطرد في الشعر العربي، ص ٨١.

(3) ديوان المزرد بن ضرار الغطفاني، ص ٤٧ وما بعدها.

ولأن الوسائل المستخدمة في الصيد مهمة في هذا السياق، ولتحقيقها أمر الإطعام كما في قول لبيد السابق، فإننا نجد شاعرًا يخص القوس التي هي من أدوات الصيد بالإطعام، وذلك حين يسميها بالمطعمة أو المطعَمَة، يقول علقمة الفحل:

وَفِي الشِّمالِ مِنَ الشَّرْيَانِ مُطْعَمَةٌ كَبْدَاءُ في عَجْسِها عَطْفٌ وتَقْوِيْمُ[1]

وجاء في اللسان تسمية العرب القوس بالمطعِمة بكسر العين، وقال بعضهم بفتح العين[2]، والمعنى واحد في كونها تطعم صاحبها من الصيد.

ومع شرف الصيد الدال عليه مزاولة بعض الوجهاء في الجاهلية له، نجد أن هناك من ينظر إليه نظرة استحقار على أنه لا يليق بذي المال، وأنه من أعمال الصعاليك الفقراء، حيث جرى حديث في مجلس النعمان وبين يديه، ذم فيه معاوية ابن شَكَل حَجْلَ بن نضلة بقوله: «إنه مقبل النعلين، منتفخ الساقين، قعو الأليتين شاء بأقراء، قتال ظباء، يباع إماء»، والشاهد في قوله: قتال ظباء كناية عن أنه صاحب صيد، ووجه الذم في كونه صيادًا ولم يكن من أصحاب الإبل فما كان من النعمان إلا أن قال له: «أردت أن تذمه فمدحته»[3]، والنعمان ملك له في الصيد، ويراه من متعه، فلم يجد فيه مذمة وعيبًا.

وقد هجا عمرو بن معد يكرب بني الحارث بقوله:

---

(1) ديوان علقمة الفحل، ص ١٣٦. الكبداء: القوس التي يملأ مقبضها الكف. العجس مقبض القوس. العطف الميل والاعوجاج. التقويم: إزالة الاعوجاج.

(2) لسان العرب: مادة (ط ع م).

(3) السابق: مادة (ق ر ا).

أَبَنـــي زِيَـــادٍ أَنْـــتُمُ فـــي قَـــوْمِكُمْ ذَنَـبٌ ونَحْـنُ فُـرُوعُ أَصْـلٍ طَيِّـبِ
نَصِلُ الخَمِيْسَ إِلَى الخَمِيْسَ وأَنْتُمُ بـالقَهْرِ بَـيْنَ مُرَبِّـقٍ ومُكَلِّـبِ[١]

والمكلب هو الذي يعلم الكلاب الصيد ثم يصيد بها، وأبيات عمرو تختلف عن قول معاوية بن شَكَل الذي قصد الفقر، بينما عمرو يقصد الجبن الذي يظهر نظيره في قومه الذين يغزون ويغنمون، في حين أن بني زياد لا غُنْمَ لهم إلا الصيد لجبنهم، فلم يكن الصيد حقيقة محور الذم، بل كُنِّيَ به للفقر والجبن. ومن منظور آخر تؤكد أبيات عمرو أن التعيش من الصيد من عادات العرب القديمة، وأنه كان نشاط قبائل كاملة كبني زياد بن الحارث الذين ذمهم، وكقبيلة هذيل التي كان الصيد أساسًا لاقتصادهم[٢]. وعند قبائل أخرى يصبح قتل الملوك حلالًا لمنعهم من الصيد، فكليب عندما استبد ببني بكر، ومنعهم من الصيد وكان يقول لهم: «صيد ناحية كذا وكذا في جواري، فلا يصيد أحد منه شيئًا»[٣]، ضموا هذا السبب إلى جملة أسباب فجرها قتل الناقة فقتله جساس ثم قال:

سِوَى كَلْبٍ عَوَى فِي بَطْنِ قَاعٍ لِيمْنَـعَ حِمْيَـةَ القَـاعِ المُبَـاحِ
فَلَمَّـا أَنْ رَأَيْنَـا واسْـتَبنَّا عُقَـابَ البَغْـي رَافِعَـةَ الجَنَـاحِ

---

(١) شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي، ص ٦٥- ٦٦. الخميس: الجيش. مربق: يربق الغنم، والربقة حبل صغير تشد بها الغنم الصغار لئلا ترضع. مكلب: الصائد بالكلاب.

(٢) شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، ص ٨٥.

(٣) الأغاني: ٥ / ٣٩.

صَـرَفْتُ إِلَيْـهِ نَحْسًـا يَـوْمَ سُـوءٍ لَـهُ كَـأْسٌ مِـنَ المـوْتِ الـذُّبَاحِ[1]

فكليب قُتِلَ لحميه القاع المباح، فلا يُرعى ولا يُصَادُ به، ما دام عواء الكلب يُسْمَع. فالصيد كان من جملة الأسباب التي أودت بحياة كليب. ومن الغريب أن نستشهد بهذه الأبيات لجساس بن مرة قاتل كليب، وهي من قصيدة له لم يأت فيها على ذكر ناقة البسوس التي هيجت الحرب بين بكر وتغلب أربعين عامًا.

ومهما اعتقدنا أن العرب تحتقر الصَيَّادَ وتزري به، لامتهانه الصيد والتقوت به، إلا أن كثرة أشعارهم وأخبارهم في الصيد وامتداحه والفخر به تحول دون قبول فكرة الغض من قيمته بوصفه وسيلة لسد الجوع، والحط من أقدار ممتهنيه، بل تشي كثرة الإطراء لهما على الاعتناء الزائد بالصياد وشؤونه، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الصياد قد احتل مكانة طيبة في المجتمع، عبر قرونه وأجياله المتعاقبة[2].

وسائل عارضة:

فرغنا من الحديث عن ثلاث وسائل شكلت درعًا لحماية الجاهليين من الجوع، وقلنا إن الغزو والإطعام والصيد أساس معاش عرب الجاهلية، وتحت كل واحدة منها تندرج مثل وقيم تَخَلَّق الجاهليون بها، ليكسبوا أكثر من الصيت والحمد، إذ إن الأخلاق ترفع الأمم وتفاضل بينها، وقد قيل قديمًا إن جميع الناس في مشارق الأرض، ومغاربها وجنوبها وشمالها، وإن كانوا

(1) ديوان بني بكر في الجاهلية، ص ٣٨١.

(2) الصيد والطرد في الشعر العربي، ص ٦٦.

نوعًا واحدًا، يتميزون بثلاثة أشياء بالأخلاق، والصور، واللغات[1]، وقد رأينا أن الغزو مقترن بالشجاعة، والإطعام مقترن بالجود والكرم، والصيد توفر فيه غير قليل من الصبر والجلد واحتمال مصاعبه ومشاقه، وكل هذه أخلاق استوعبها الجاهليون من بيئتهم وظروفهم المعيشية لتستمر حياتهم ويهزموا الجوع بهذه الأخلاق.

ومن وسائل مكافحة الجوع ما يكون محصورًا بزمن معين، يلجأ إليها الجاهلي في أوقات متفرقة، وليس لها استمرارية ما سلف من وسائل مكافحة الجوع، وإنما يستخدمها حين تتقطع به سبل هذه الوسائل، أو يستنجد بها وهو في طريقه للوصول إلى إحدى هذه الوسائل، وهي من تدابير العقل الجاهلي للمحافظة على الحياة وصد الجوع المفضي إلى الموت، حتى بلوغ الأمن والمأمن منه.

من أظهر هذه الوسائل ما كان يستعمله الغزاة وهم في طريقهم إلى الغنيمة التي هي الهدف القاتل لجوعهم، حيث يُنَظِّمُ الغزاة قوتهم وهم في الطريق تحسبًا لطوله، أو لفشلهم في الغارة، ويتطلب ذلك منهم الصبر على الطعام القليل ومكابدة الجوع اليسير، حتى ينجحوا في نيل الغنيمة فيدفعوه جملة عنهم، وفي هذا يقول الشنفرى:

---

(1) طبقات الأمم، لصاعد الأندلسي، وضع مقدمته: السيد محمد بحر العلوم، طبعة المكتبة الحيدرية، النجف، ١٩٦٧م، ص ١.

وأُمِّ عِيَـالٍ قَـدْ شَـهِدْتُ تقُـوتُهُمْ إِذَا أَطْعَمَـتْهُم أَوْتَحَـتْ وأَقَلَّـتِ
تَخَافُ عَلَيْنَا الجُوعَ إِنْ هِيَ أَكْثَرَتْ ونَحْـنُ جِيَـاعٌ أَيَّ آلٍ تألَّـتِ[1]

فمسؤول الإطعام في جيش الصعاليك الغازي يقلل لهم الطعام؛ كي يضمن نجاتهم، فجوع يسير خير من هلاك محتم في قفار الجزيرة . ولعل هذا الأمر تدبير من تدابير الحروب في ذلك الوقت، وبند رئيس من بنود نجاح الغارة يعتمده كثير من القبائل التي شُغلت بالغزو، وغلبت عليها الحروب.

وفي سياق الغارة والغزو والاستعداد لهما بالمؤن لم يكن أي طعام صالحًا لحمله، بل لابد لهذا الطعام من توفر شرط الاحتمال للعوامل البيئية التي قد تفسده لطول الوقت، فرأى الجاهليون تجفيف الطعام حلًا يحفظون به طعامهم وقت الغارة، وعن ذلك يقول عروة بن الورد واصفًا غارة له مع أصحاب الكنيف، ويصرح فيها أن طعامهم لحم خزور مملح:

يَنـوُؤُونَ بِالأَيْـدِي وأَفْضَـلُ زَادِهِـمْ بَقِيَّـةُ لَحْـمٍ مِـنْ جَـزُورٍ مُمَلَّـحِ[2]

هذا اللحم هو ما يعرف بالقديد[3]، وهو جعل اللحم مقطعًا مع وضع الملح عليه ووضعه في الشمس، وهي عملية يعرفها العرب القدماء ليحفظوا بها الطعام من الفساد والتعفن، وقد يعول على القديد في الحرب والسلم، إذ

(1) ديوان الشنفرى، ص٣٧. أوتحت: أعطت عطاءً قليلًا. أي آل تألت: أيُّ سياسة ساسة.

(2) ديوان عروة بن الورد، ص ١٠٦. ينوؤون بالأيدي: تثقل عليهم أيديهم فلا يرفعونها إلا بجهد.

(3) لسان العرب، مادة (ق د د).

كانت القبائل تخزن هذا النوع من اللحم للأزمات والشدائد، ولكون القديد لا يخرج إلا لأزمة يشتهيه بعض الشعراء فيقول:

أَكَلْــتُ الضِّــبَابَ فَمَــا عِفْتُهَــا وَإِنِّــي لأَشْــهَى قَدِيْــدَ الغَــنَمْ(١)

ومن مرادفات القديد في اللغة الموشوق، وقد استخدمه عدد من الشعراء منهم أبو ذؤيب الهذلي الذي يقول:

لَــهُ مِــنْ كَسْــبِهِنَّ مُعَــذْلَجَاتٌ قَعَائِـدُ قَـدْ مُلِـئْنَ مِـنَ الوَشِـيْقِ(٢)

ويقول الأسود بن يعفر في رثاء مسروق النهشلي:

مَـنْ لاَ يُشَـيِّعُهُ عَجْـزٌ ولاَ بَخَـلٌ ولاَ يَبِيْـتُ لَدَيْـهِ اللَّحْـمُ مَوْشُـوقَا(٣)

ومهما يكن من أمر فإن الوشيق أو القديد من وسائل حفظ الطعام التي عرفها الجاهليون، ليطيلوا مدة قدرتهم على الانتفاع به، وحفظه للأوقات العصبية التي يمرون بها، أو في خروجهم للحرب، وشبيه لهذا ما يصنعه أهل السواحل في ذلك العصر، حيث كانوا يستبدلون لحوم الإبل والأغنام التي يُعمل منها القديد عند سكان الصحاري، بلحوم السمك، إذ كانوا يعيشون عليه ويبيعونه لحمًا جافًا ويصدرونه إلى الأماكن البعيدة ويحملون الطري

(١) عيون الأخبار، لابن قتيبة، طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة: ٣/ ٢١٠.

(٢) شرح أشعار الهذليين: ١ / ١٨٢.

(٣) الأغاني: ١٣ / ٢٨.

منه إلى الأماكن التي لا تبعد كثيرًا عن السواحل ويجفف ويدق ليكون طعامًا عند الحاجة إليه[١].

ويبدو هذا التقارب بالطريقة التي يحفظ فيها الطعام بين عرب الصحراء وعرب الساحل، وهي طريقة أنتجتها العقلية العربية القديمة لدفع الجوع والانتصار عليه، وبقاء الطعام مستمرًا ما دامت الحاجة إليه كبيرة.

وكثيرًا ما يهتدي بعض الرجال في العصر الجاهلي بفضل رجاحة عقولهم إلى حلول يخففون فيها وطأة الجوع على الفقراء والمساكين، والإطعام من هذه الحلول، إلا أننا نعرض حلًا آخر لم يكن له انتشار الإطعام وقتئذٍ وهو الدعوة إلى إنصاف الفقراء والمساكين المحاويج، كدعوة أصحاب الإيلاف من قريش الذين رفع الله بهم قريشًا ونعش فقراءها[٢]، ودعوة الإيلاف تقوم على إخراج نصيب من أموال الأغنياء لمساعدة الفقراء والمحتاجين[٣]، والقيام بحقهم، وحفظ كرامتهم، وهم من قريش وسكان مكة، بلد المال والتجار. ويتطور الأمر مع هاشم ويسن لقريش الرفادة والسقاية وهي إطعام ضيوف مكة والمحتاجين من أهلها وسقايتهم.

وكل هذه التدابير من إيلاف ورفادة وسقاية، تأتي ضمن إطار المعالجة لمشكلة الفقر والجوع التي كانت تعانيها مكة وزوارها من حجيج ومعتمرين. ومن منظور اجتماعي آخر تتصدى هذه الحلول، وتحول دون اندلاع ثوراتٍ للجياع في مكة قد تعصف بالأغنياء، وتسمح للفقراء بالتطاول

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١ / ٢٠٦.

(٢) المحبر، لابن حبيب، اعتنى بتصحيحه: د. إيلزة ليختن شتيتر، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص ١٦٢.

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥ / ٨٤.

على أموالهم، وإرغامهم على المساهمة فيها، مما ينشر الفزع والخوف بين سكان هذه المدينة المتاجرة[١].

وكما اهتدى أصحاب الإيلاف إلى شيء مشابه للزكاة أو للضريبة يؤديها الغني إلى الفقير، اهتدى كثير من الجاهليين إلى الميسر، ورغم تحريم الشرع له[٢]، فإن فكرة الجاهليين منه الإطعام، يدل على ذلك قول ابن قتيبة: «وإنما يكون ضربهم على الميسر بالقداح في الشتاء، عند جدب البلاد، وتعذر الأقوات وكلب الزمان، لينعشوا بذلك الفقير والضرير»[٣]. لذلك أصبح الميسر مادة للفخر في أشعار الجاهليين، لأنهم يرون فيه المكارم، وأنه من باب الجود والكرم، وهذا علقمة بن عبدة يفتخر بأنه صاحب ميسر فيقول:

وقَدْ يَسرتُ إِذَا مَا الجُوْعُ كُلّفَهُ مَعَقَّبٌ مِنْ قِدَاحِ النَّبْعِ مَقْرُومُ
لَوْ يَيسرونَ بَخيْلٍ قَدْ يَسَرْتُ بِهَا وَكُلُّ مَا يَسَرَ الأَقْوَامُ مَغْرُومُ[٤]

وقد خسر الأسود بن يعفر في الميسر تسعة عشر بكرًا، وهو مجاور في بني قيس بن ثعلبة، فلامتهم أمه رُهم بنت العباب، فحبسوا قداحه، فدخل ليقامرهم فردوه، فقال: لا أقيم بين قوم لا أضرب فيهم بقدح فاحتمل عنهم[٥].

ويصرح ابن قميئة في شعره مفتخرًا بقومه وأنهم أهل ميسر فيقول:

---

(١) السابق : ٥ / ٨٢.

(٤) الميسر والقداح، لابن قتيبة، نسخه وعلق عليه: السيد محب الدين الخطيب، طبعة المطبعة السلفية، القاهرة، ط٢، ص ٢٧ وما بعدها.

(٥) السابق، ص ٨٣.

(١) ديوان علقمة الفحل، ص ٧٧. يسرت: أي لعبت الميسر. معقب: أي قدح مشدود بالعقب. النبع: أكرم شجر القسي والقداح. المقروم: الذي حز عليه بالأسنان.

(٥) الأغاني: ١٣ / ٢٢.

إِنِّـــي مِـــنَ القَـــوْمِ الَّـــذِيْنَ إِذَا ... أَزِمَ الشِّـــتَاء ودُوخِلَـــتْ حُجْـــرُهْ
ودَنَـــا وَدُونِيَـــتِ البُيُـــوتُ لَـــهُ ... وَثَنَـــى فَثَنَّـــى رَبِيْعَـــهُ قَـــدَرُهْ
وَضْـــعَ المَنِـــيْحَ وَكَـــانَ حَظُّهُـــمُ ... فِـــي المُنْقِيَـــاتِ تُقِيْمُهـــا يُسـرُهُ[1]

ولأن الميسر داخل في الإطعام، وبه يرد جوع كثير من الناس في ذلك العصر افتخر به كثير من الشعراء، وعدوه مكرمة من مكارمهم لابد من ذكرها في شعرهم، مثلها مثل كثير من الخصال الحميدة.

وفي رأيي أن الميسر يكون في كل وقت، لا كما يقول ابن قتيبة إنه لا يكون إلا في الشتاء وقت الجدب، إذ إن العرب يبحثون عما يكسبهم الثناء والميسر كذلك، كما أن فيه نوعًا من الترفيه لهم يَقْطَعُ رتابة حياتهم، ويبعثهم على المنافسة فيه والتسلية، ولعله يكون في مقدمات ولائمهم، لكن الذي لا شك فيه انتشار هذه الظاهرة فيهم إلى أن حرمها الإسلام بنصوص القرآن.

وإن كنا قد رأينا العقلية الجماعية تسهم في ابتكار حلول للجوع ومكافحته فإن الأفراد أو الفرد قد توصل مصطلحًا مع ذاته إلى حل قد يقيه الجوع عدة أيام قد تطول نسبيًا، وذلك حينما يرى العربي نفسه أقوى من الجوع، فتبدأ إرادته بقتله حتى يميته نفسيًا، وهذه الإرادة سلاح كل عربي جاهلي، لأنه يرى فيها كرامته، التي لا يريد لها الزوال أو الانحطاط أمام رغبة الطعام، كي لا يحتقر نفسه. ويلخص لنا هذه الفكرة عنترة العبسي فيقول:

---

(1) ديوان عمرو بن قميئة، تحقيق وشرح: حسن كامل الصيرفي، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الحادي عشر، ١٩٦٥م، ص ٢٠٣. أزم: عض واشتد. المنيح: من أقداح الميسر. المنقيات: النوق السمان.

ولَقَدْ أَبِيْتُ عَلَى الطَّوَى وأَظَلُّهُ حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيْمَ المَأْكَلِ[1]

فمبيت عنترة جائعًا حرب مع الطوى والسغب، وعنترة فارس له شخصيته المثالية، التي لا يريد لها التشوه بالحرص على الطعام والتكالب عليه، بل يصبر على جوعه حتى ينال به مأكلًا كريمًا لا يشوه خلقه.

وَيُقِرُ الشنفرى بمقدرته على قتل الجوع، بتناسيه والإعراض عنه، فيقول:

أُدِيْمُ مِطَالَ الجُوْعِ حَتَّى أُمِيْتَهُ وَأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحًا فَأَذْهَلُ[2]

وأبلغ من هذا وذاك قول أبي خراش الهذلي:

وَإِنِّي لأُثْوِي الجُوعَ حَتَّى يَمَلَّنِي فَيَذْهَبَ لَمْ يُدْنِسْ ثِيَابِي ولا جِرْمِي
وَأَغْتَبِقُ المَاءَ القَرَاحَ فَأَنْتَهِي إِذَا الزَّادُ أَمسَى للمُزَلَّجِ ذَا طَعْمِ
أَرُدُّ شُجاعَ البَطْنِ قَدْ تَعْلَمِيْنَهُ وأُوثِرُ غَيْرِي مِنْ عِيَالِكِ بالطُّعْمِ
مَخَافَةَ أَنْ أَحْيَا بِرَغْمٍ وذِلَّةٍ وللمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ عَلَى رُغْم[3]

فأبو خراش يعترف بحبسه الجوع والإقامة عليه، حتى مله وانصرف عنه. ومن الأبيات يتضح بشكل جلي أن الدافع من وراء هذا الصبر دافع

---

(1) ديوان عنترة، ص ٢٤٩.

(2) ديوان الشنفرى، ص٥٨. أديم: أستمر. المطال: المماطلة. أضرب عنه الذكر صفحًا: أتناساه. أذهل: أنساه.

(3) شرح أشعار الهذليين: ٣/ ١١٩٩-١٢٠٠. أثوي الجوع: أطيل حبسه. الجرم: الجسد. المزلج: الذي ليس بالمتين. الرغم: الهوان والذلة.

أخلاقي يتمثل بإيثار عياله بالطعام، ومخافته من الحياة الذليلة في ظل السؤال وطلب العرف والإحسان من كريم مانح أو شحيح مانع.

لا تختلف الوسائل العارضة في مكافحة الجوع عن الوسائل الأساسية عند الجاهليين إلا في استمراريتها. فالغزو والإطعام والصيد هي نهج حياتهم وطبيعتها وعليها تقوم، لا ينفك جاهلي عن إحدى هذه الثلاث، في حين نجد الوسائل العارضة تشتد في أوقات، وتخبو في أوقات، إذ ترد إلى البيئة وظروفها في أغلب الأحيان، وأما وسائلهم العامة فهي ربيبة نفوسهم، ومرجع بعض أخلاقهم وقيمهم، فاستمرارها واجب تحتمه الحياة وما فيها من بؤس.

وسواء علينا فصلنا هذه الوسائل أم لم نفصلها، فمثالية العربي محفوظة في كل جزء منها، لأن إقرار هذه المثالية لا ينبع من الوسيلة نفسها، بل من الروح العربية التي لا تنفك عن مراقبة القيم والأخلاق والتمسك بها، بما يعود عليها بالمحامد من شرف ومجد وثناء عطر يخلد في صفحة العز الجاهلية.

الفصل الثاني

ذم البطنة

جاء تحت مادة (بطن) في لسان العرب، أن البطنة امتلاء البطن من الطعام، وهي الكِظَّةُ، وتعني امتلاء البطن امتلاءً شديدًا من الطعام، وجاء في تصاريفها: (بَطِنَ يَبْطَنُ بَطْنًا وبِطْنَةٌ وبَطُنَ وهو بطين وذلك إذا عظم بطنه), والمِبْطَانُ الكثير الأكل والعظيم البطن، ورجل بَطْنٌ لا هم له إلا بطنه، وهو الرغيب الذي لا تنتهي نفسه من الأكل. والمِبْطَان الذي لا يزال ضخم البطن[١].

فتتراوح هذه اللفظة في تصاريفها بين عظم البطن وكثرة الأكل وفي تراث العرب القديم من الألفاظ ما يتقاسم هذين المعنيين، فالبَادِنُ هو السمين الجسيم، والبُدْنةُ كثرة اللحم، وبدنت سمنت وضخمت[٢]، وكل هذه المعاني تصور الشكل الخارجي للمكثر من الأكل حتى عظم جسمه وضخمت أعضاؤه.

ومن معاني كثرة الأكل وحبه، تصادفنا لفظة (السمن) وهي التوسع في المآكل والمشارب[٣]، وتصادفنا أيضًا مفردة (الشبع)[٤] وهي درجات من الاكتفاء إلى الكِظَّة والتخمة، وهي في باب الحرص على الطعم أوثق من البطنة والبدانة، وقد يوصل الشبع صاحبه للضخامة إذا استمر فيه، ولم يتدارك نفسه.

---

(١) لسان العرب: مادة (ب ط ن).

(٢) السابق: مادة (ب د ن).

(٣) السابق: مادة (س م ن).

(٤) السابق: مادة (ش ب ع).

فإذا ما تأملنا هذه الألفاظ، وتتبعناها في الأدب الجاهلي، ووازنا بينها وبين حديثنا السابق، انكشفت أمامنا حقيقة علمية لها دلائلها من النثر والشعر. هذه الحقيقة مفادها أن الجاهليين طوال ذلك العصر قد استقر في أعرافهم كره البطنة للرجال، وعابوا أن يكون الرجل عظيم البطن، ضخم الجثة على سمن دون استواء في البنية الجسدية. كما عابوا كل طريق مؤدية إلى هذا ولاسيما الحرص الشديد على الأكل.

وانطلاقًا من أدبهم –على ما سنبين– نلمح علة هذا الأمر، وقد بينا في حديث سابق أن الطعام لم يكن غاية في ذاته عند الجاهليين وإنما يرومه من لا يقدر عليه من النساء والضعفاء والأطفال والشيوخ، وأما النظرة العامة فهي النظرة الطبيعية التي ترى قليله خير من كثيره، وكثيره يدفع للمكرمات ولذوي الحاجة.

فهذه الرؤية التي نؤكد عليها، ونسلم بها للكرماء والأجواد، وأخبرنا بها الأدب الجاهلي، وكشفت عن صدقها الأخبار والروايات، لا تتواءم مع البطنة في ذلك العصر، فالقوت شحيح، والنفس زاهدة فيه راغبة عنه، وفوق هذا شرف لا يريدون تدنيسه، ومروءة لا يرغبون تشويهها. فلا عجب بعد ذلك أن يذموا البطنة وأصحابها وأن يعيشوا على نفيها في أنفسهم وممدوحيهم، والسبب في ذلك كشف البطنة عن وجه قبيح لأصحابها لا ينبغي أن يظهر في مثل هذه البيئة. فلقي أصحابها من هجاء الشعراء ما أوجعهم، ولقيت البطنة ذاتها من ذم الحكماء وأهل الطب ما حَرَفَ كثيرًا من الناس عنها.

وإحقاقًا للحق، ورغم كره العرب للبطنة والبطناء، كان في العصر الجاهلي من اشتهر إما بعظم بطنه، وإما بشدة حرصه على الأكل. ومن

أشهرهم قيس بن زهير العبسي وكان أكولًا مبطانًا[١]، ومنهم كذلك زهير بن جناب الكلبي وكان عظيم البطن[٢]، ومنهم أيضًا عمرو بن معد يكرب وكان أكولًا[٣]. ومن يلاحظ هذه الأسماء يجد أنها أقمار في سماء الجاهلية لها من الشهرة والصيت الشيء الكثير، وكلهم من السادة والأشراف، وكلهم من الشجعان الفرسان. مما يدفعنا إلى القول بأن العرب قد تتغاضى عن بطنة الشريف السيد، لشرفه وسيادته، إذ لا يمكن الحط من قدره وهو جامع لخصال المروءة، أو معظمها على أقل تقدير من أجل هذا الأمر. وإنما الذم ينصرف لمن بدت عيوبه وكثرت، وزيدت عليها البطنة.

وما دمنا في إقرار الحقيقة، لابد من الشهادة لرجال العصر الجاهلي بأن البطنة والأكلة لم تكن ديدنهم، ولم تشتهر في عصرهم كما اشتهرت في عصور تالية لهم كالأموي والعباسي حتى وصف بعض الخلفاء والولاة والوزراء والشعراء بالأكلة الحريصين على الطعام، كما نما في هذين العصرين من عرفوا بالطفيليين الذين يأتون الولائم والدعوات والمناسبات دون دعوتهم تطفلًا منهم وجشعًا فيهم، ولهم في ذلك دروس ومواعظ يعلمون فيها الناس كيف يكون التطفل، وتقرأ في أخبارهم ما يخزي ويخجل من تدني النفس، والحرص على إراقة ماء الوجه من أجل شُبْعَةٍ زهيدة. ويكفيك أن تنظر في باب الأطعمة في عيون الأخيار أو العقد الفريد أو التذكرة الحمدونية، لترى أمر هؤلاء القوم مبسوطًا فيها، لتعلم ما وصل إليه التدني

---

(١) سمط اللآلي، لأبي عبيد البكري، تحقيق: عبد العزيز الميمني، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٦م: ٢ / ٨٢٣.

(٢) الأغاني: ١٩ / ٢٢.

(٣) السابق: ١٥/ ٢٠٢- ٢١٢.

الأخلاقي عند بعض العرب في غير العصر الجاهلي القائم على الزهد والعفة والبذل، ونبذ الحرص والشح وحفظ الكرامة وإن أدت إلى الهلاك.

ولعل البيئة أسهمت بشكل أو بآخر في الحد من طغيان البطنة وطرائقها، وحالت بفقرها الشديد دون تفشي هذا الداء بين عرب الجاهلية، وإن كنت أظن أن العقل الجاهلي كان له إسهام في ذلك أيضًا يتضح ذلك في الجوانب الصحية على بدائيتها، وعدم تقدمهم فيها، وقد سئل طبيبهم الحارث بن كلدة: ما أفضل الدواء؟ قال: الأزم يريد قلة الأكل[١]، وجاء في أمثالهم «ليس للبطنة خير من خمصة تتبعها»[٢]، فهم يستطبون بالجوع، ويقرون للبطنة بالمرض، وهذه عقلية تنم عن تفكير سليم كان ليخفى لو أذعنوا للبطنة، لتحققهم من أن البطنة تذهب الفطنة[٣]، كما يقولون قديمًا، ومن الصعب عليهم أن يفقدوا صحتهم وعقولهم بسبب الطعام وما يورثه من بطنة هي داء العقل والجسد في نظرتهم.

من هذه العقلية أيضًا توصل الجاهلي إلى أن السمن وضخامة بعض أعضاء الجسد من الخصائص المميزة للنساء. وهي كذلك سمة من سمات جمال المرأة في العصر الجاهلي، وكثيرًا ما يتحدث الشعراء عن سمن محبوباتهم، تدليلًا على تنعمها أولًا، وعلى أن مقياس الجمال في عصرهم سمن المرأة ثانيًا. من ذلك قول عبيدة بن الأبرص يصف صاحبته:

أَوطَنَتْهـا عُفْـرُ الظِّبَـاءِ وَكَانَـتْ قَبْـلُ أَوْطَـانَ بُـدَّنٍ أَتْـرَابِ
خُـرَّدٍ بَيْـنَهُنَّ خَـوْدٌ سَـبَتْنِي بـدَلالٍ وهَيَّجَـتْ أَطْرَابِـي

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣ / ٣٧٧.
(٢) مجمع الأمثال: ٣ / ٢١٠.
(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣ / ٣٧٧.

صَـعْدَةٌ مَـا عَـلا الحَقِيبَـةِ مِنْهَـا وَكَثِيْبٌ مَا كَانَ تَحْتَ الحِقَابِ[1]

ومع ما تجمع لهذه الفتاة من معطيات الحسن وصفات الجمال كإشباهها الظباء والشباب والنعومة، والعذرة، إلا أن البدانة تظهر بين هذه الصفات لتؤكد أنها سمة من سمات جمال المرأة الجاهلية، وقد صرح عبيد بقوله: "بُدَّنٍ" على أن محبوبته منهن، وفي البيت الثالث يقر بأن سمن فتاته في جزئها الأسفل، وأما جزؤها الأعلى فهو كالقناة مشدودًا ومستويًا.

وبوصف أظهر من وصف عبيد يطالعنا الأعشى، وهو المفتون بالنساء فيصف لنا مقياسه الجمالي فيهن، حيث تبدو المرأة في عينه بدينة لم يلوحها هزال قط، ولشدة بدانتها يكاد جلدها يتمزق لاكتنازها بالشحم واللحم، يقول أبو بصير:

وشَـــغَامِيْمَ جِسَـــامٍ بُـــدَّنٍ نَاعِمَـاتٍ مِـنْ هَـوَانٍ لَـم تُلَـحْ
كالتَّمَاثِيـــلِ عَلَيْهَـــا حُلَـــلٌ مـا يُـوارِيْنَ بُطُـونَ المُكْتَشَـحْ
قَـــدْ تَفَـــتَّقْنَ مِـــنَ الغُسْـــنِ إِذَا قَـامَ ذُو الضُّـرِّ هُـزَالاً ورَزَحْ[2]

([1])ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق وشرح: د. حسين نصار، طبعة الحلبي، القاهرة، ط١، ١٩٥٧م، ص ٢٢. أوطنتها: جعلتها وطنًا. عفر الظباء: ما يعلو بياضه حمرة. بدن: جمع بادن، وهو الجسيم. أتراب: جمع ترب وهو الصديق. الخرد: جمع خريدة وهي الخفرة. خود: المرأة الشابة الناعمة. صعدة: طويلة. الحقيبة: العجيزة. الكثيب: الرمل المجتمع.

([2]) ديوان الأعشى الكبير، ص ٢٤٣ وما بعدها. شغاميم: طوال. لم تلح: لم تهزل. الكشح: الخصر. الغسن: الشحم. ذو الضر: الذي أضر به الهزال. رزح: سقط من الهزال.

فذوق الأعشى ومقاييسه الجمالية تظهر بجسامة وبدانة المرأة، التي لم تعرف الجوع فتهزل وينحل جسدها، وتماشيًا مع ذوق العصر وخصائصه الجمالية القائمة على بدانة المرأة، لا تتحرج المرأة من كشف جسدها السمين، لإعجاب الناس بهذا الأمر.

وبتعبير كنائي ليس فيه مجون الأعشى يكشف لنا ابن مقبل عن سمن صاحبته فيقول:

ثِقَالُ الخُطَى، غِيْدِ السَّوَالِفِ لَمْ تُقِمْ عَلَى الخَسْفِ، يَمْلأْنَ الدَّمَالِيجَ والحِجْلا[1]

فثقلُ خطوها، وعدم جوعها، وامتلاء الدماليج وهي ما ترتديه المرأة في ذراعيها من الذهب، والحجول التي هي الخلاخل التي تضعها المرأة في ساقيها يوضح عظم جسدها كاملًا، فنظرة ابن مقبل تختلف إذًا عن نظرة عبيد الذي اكتفى بجزء بدين وآخر معتدل، وأما ابن مقبل فأعضاء صاحبته كلها سمينة.

هذا هو المظهر الوحيد الذي امتدح فيه الجاهليون البدانة والسمنة وهي من عواقب البطنة التي أكثروا من ذمها. وعندما رأوا إعجابهم بالمرأة السمينة مدحوا ذلك وجعلوه من خصائص النساء، وزادوا من مذمتهم للسمن كي لا يتشبهوا بصفاتهن، وهذا عامل من عوامل كرههم للبطنة، لأنها تدنيهم من النساء، وتجعلهم على مقربة من المرأة وهذا يتنافى ومبدأ الرجولة الذي يعتد به العربي، ويبتعد عما يدنسه وإن كان شكلًا خارجيًا لا يمس الجوهر والمعدن النفيس المشتملة عليه نفسه.

---

(1) ديوان ابن مقبل، ص ٢٠٦. غيد السوالف: أي مائلة الأعناق مسترخية لنعومتها. الخسف: الجوع. الدماليج: جمع دملج وهو المعضد من الحلي. الحجل: الخلاخيل.

فإن كانت السمنة عند النساء جمالًا يقدره الجاهلي، فكيف يرى الجاهلي سمنة الرجال في ذلك العصر؟ انطلاقًا مما ذكرناه سابقًا من عفتهم في الزاد، واكتفائهم بالقليل الذي يحفظ الحياة، وحرصهم على كسب الحمد والسيرة العطرة ببذل الطعام لمحتاجيه، وموازنته مع ما يخلفه نقبض هذه الصفات من الجشع والحرص وسوء الأحدوثة إلى أن يصل بالرجل إلى البطنة والسمنة، وهذا منتهى الذم عندهم، حيث لاحظ الجاهلي أن صفات ذوي البطنة في معظم أحوالها ذميمة قبيحة، فتولد عنده شعور استهجانها وتقبيحها من منظوره الخاص، ومنظور عصره الذي ينشد فيه كافة الرجال الحسن والشرف الموصلين إلى مثالية يتغنى بها الشعراء، ويمدح بها الشرفاء والكرماء.

رأى الجاهليون أن البطنة مدعاة لسوء الخلق عند الرجال، وجالبة للثرثرة وطيش اللسان، إذ لا يكف صاحبها عن هجاء الناس وقدحهم والخوض فيهم بلسانه. ويرد أهل الجاهلية هذا الفعل إلى بطنة صاحبه فيقرنون بين هجائه لهم، وبطنته التي غلبت عليه. من ذلك قول سُويد بن أبي كاهل مخاطبًا بني شيبان بعد هجائهم له فيقول:

حَسِبْتُمْ هِجَائِي إِذْ بَطَنْتُمْ غَنِيْمَةً عَلَيَّ دِمَاءُ البُدْنِ إِنْ لَمْ تَنَدَّمُوا(١)

ومثله قول أعشى قيس في عتاب بني عَبْدَانَ بن قيس بن ثعلبة الذين أغروا شاعرًا ليهجو قومه، فعاتبهم في ذلك، ورده إلى بطنتهم التي قتلت حلمهم، يقول الأعشى:

(١)ديوان بني بكر في الجاهلية، ص ٦٧٤.

يَـا بَنِـي المُنْـذِرِ بـنِ عَبْـدَانَ والبِطْـ نَـةُ يَوْمًـا قَـدْ تَـأْفِنُ الأَحْلامَـا
لِـم أَمَـرْتُمْ عَبْـدًا لِيَهْجُـو قَوْمًـا ظَالِمِيْهِمْ مِن غَيْرِ جرْمٍ كِرَامَا[1]

ويسجل لنا الشعر الجاهلي عيوب البطنة القولية، فيجاوز بها الهجاء وحثها عليه، إلى محاولة أهل البطنة زعزعة أواصر الدم والقربى بما يثيرونه من مهاترات وتعديات على أفراد يعيشون معهم من أبناء القبيلة، وكأن البطنة نزت بهم وأخرجتهم عن الآداب والأعراف الجاهلية التي يحترمها الأفراد في القبائل.

من ذلك قول قيس بن عاصم التميمي في ذم بني يربوع من تميم، لمفاخرتهم قومه، وعدم نصرتهم لهم يوم جدود، ويرد قيس هذا السوء في بني يربوع لتمكن البطنة منهم إذ يقول:

أَفَخْـرًا عَلَـى المَـوْلَى إِذَا مَـا بَطِنْـتُمُ وَلُؤْمًا إِذَا مـا الحَرْبُ شَبَّ سَعِيْرُهَا[2]

ولأرطأة بن سُهَيَّة حديث هو لب ما نتحدث عنه من ذمامة البطنة، إذ كانت أمه سبية من كلب، وكانت لضرار بن الأزور ثم صارت إلى زفر بن سعد بن ذبيان وهي حامل فجاءت به من ضرار على فراش زفر فنشأ مع أولاد زفر، لكنهم لم يحترموا له نشأته فيهم، وكان أرطأة يحس بذلك، ويشعر بما بينهم من فروق، حتى إذا ما تأزم الأمر بينهم صاح أرطأة فيهم قائلًا:

فَـإِذَا خَمِصْـتُمْ قُلْـتمْ يَـا عَمَّنَـا وَإِذَا بَطِنْـتُمْ قُلْـتُمُ ابْـنَ الأَزْوَرِ[1]

([1])ديوان الأعشى الكبير، ص ٢٤٧. تأفن: من أفن الرجل، أي ضعف رأيه. الأحلام: العقول.

([2]) شعر بني تميم في العصر الجاهلي، ص ١٤٦.

فانظر إلى وصف أرطأة لأهل البطنة وكيف تحكمهم المنفعة فيبجلونه ويرفعون قدره وقت الفقر والحاجة والجوع، وكيف إذا بطنوا لم يحفظوا له عشرة ولا نشأة.

وعلى هذا تصبح البطنة في إطار القول المجرد الناجم عن دعة هذا السمين جالبة لكل سوء على المستوى القبلي داخليه وخارجيه، فإن كانت البطنة تحفز الهجاء بين القبائل، فهي باعثة للحرب لامحالة، وإن كانت تغري الأفراد ببعضهم داخل هذه العشائر والبطون المتسقة في القبيلة فهي داعية الشتات والتفرق، وربما الحرب وإراقة الدماء. فلا غرو بعد هذا أن يصور شعراء الجاهلية ممارسات البطناء في عصرهم، وأن يقفوا راصدين أقوالهم التي تنحط بالمجتمع ابتداءً من غياب كل مثل وقيم رميت خلف الظهور، إلى أن نصل إلى تفكك القبيلة وقطع أواصر القرابة، وسفك الدماء.

وتتعدى ملاحظ عيوب البطنة عند الجاهليين حدودها القولية؛ لتصبح مؤثرة سلبًا في سلوك بعض الأفراد في ذلك العصر، حتى إن البطين يتخلى عن قيم العصر وأعرافه التي تَسَالَمَ عليها الجاهليون، وأقروا بها بنودًا في دستورهم الاجتماعي، لأن بطنته وسمنته لم تمكن له من نيل شرف هذه القيم.

من هنا نفهم ارتباط صورة السمين بالجبن، فكل بطين، أو معظمهم ظهروا في الشعر الجاهلي بأثواب الجبناء ذمًا لهم ولبطنتهم، وفي أغلب الشعر نجد المقارنة بين السمين والنحيل، وتفوق النحيل على السمين؛

(١) انظر: الخبر كاملًا في الأغاني:١٣/ ٣٣.

بشجاعة الأول وجبن الثاني. وخير شعر يصور هذا قول عنترة مخاطبًا عبلة وقد سخرت من نحول جسده فقال:

إِمَّـا تَرَيْنِـي قَـدْ نَحَلْـتُ وَمَـنْ يَكُـنْ غَرَضًـا لأَطْـرَافِ الأَسِـنَّةِ يَنْحَـلِ
فَلَـرُبَّ أَبْلَـجَ مِثْـلِ بَعْلِـكِ بَـادِنٍ ضَـخْمٍ عَلَـى ظَهْرِ الجَوادِ مُهَبَّلِ
غَادَرْتُـــهُ مُتَعَفِّـــرًا أَوْصَـــالُهُ والقَـوْمُ بَـيْن مُجَـرَّحٍ ومُجَـدَّلِ[1]

فعندما يصف عنترة هذا الرجل لا يكتفي بقوله "بادن" بل يضيف إليها "ضخم" و"مهبل" وكلها تعني سمن الجسم وضخامته، فينبري عنترة مع نحول جسده له فيمزق أوصاله ويعفره بالتراب، ومن هذه الحال تظهر شجاعة عنترة بإزاء جبن بعل عبلة.

ويتهكم دريد بن الصمة بعبد الله بن جدعان التيمي، ويصفه بالجبن إذ يقول:

فَاقْعُد بَطِينًـا مَـعَ الأَقْوَامِ مَـا قَعدُوا وَإِنْ غَزَوْتَ فَلاَ تُبْعِدْ مِنَ النَّصَبِ[2]

وفي هذا البيت هجاء لاذع يظهر فيه ابن جدعان وهو السيد الشريف بطينًا ليس له من أمر الحرب والغارة شيء، إذ ليس من أصحاب الهمم ولا يقدر على تحمل المشقة التي تقتضيها الغارة، وكل ذلك من أمر

---

(1) ديوان عنترة، ص ٢٥٦-٢٥٧. الأبلج: البادن العظيم البدن. المهبل: الثقيل. متعفرًا: مصروعًا بالأرض لاصقًا بالتراب. المجرح: الذي كثرت فيه الجراحات. المجدل: المصروع.

(2) ديوان دريد بن الصمة الجشمي، ص ٣١. البطين: عظيم البطن. النصب: الداء والإعياء.

الجبناء، إذ الشجاع مقدام يركب الأخطار، ويتجشم أهوال الحرب لما في نفسه من عزة لا تقبل الضيم، وتأبى المذلة والخضوع.

ويقول أبو خراش الهذلي مخاطبًا زوجته أم الأديبر وقد فَضَّلَت شابًا سمينًا عليه، فيرسم صورة لهذا السمين الذي تحول إلى كتلة من لحم خَفِيَ فيها العظم لاكتناز جسده وامتلائه فيقول:

رَأَتْ رَجُلاً قَدْ لَوَحَتْهُ مَخَامِصٌ وَطَافَتْ بَرَّنانِ المَعدَّيْنِ ذِي شَحْمِ
غَذِيٍّ لِقَاحٍ لا يزالُ كَأَنَّهُ حَمِيْتٌ بَدَبْغٍ عَظْمُهُ غَيْرُ ذِي حَجْمِ[1]

فأبو خراش الذي لوحته المخامص، وبينت نحول جسده، يرى نفسه خيرًا من هذا السمين، ولهذا يدلل لها على شجاعة متأصلة في نفسه رغم نحوله، قد لا تجدها عند مُعْجِبِهَا السمين، إذ يقول:

أَفَاطِمَ إِنِّي أَسْبِقُ الحَتْفَ مُقْبِلاً وأَتْرُكُ قِرْنِي فِي المَزَاحِفِ يَسْتَدْمِي[2]

وقد استقر في الذهنية الجاهلية جبن البادن، حتى صار هذا الأمر من المسلمات، حيث نسمع قول مالك بن خالد الخناعي:

تَبِيْنُ صُلاةُ الحَرْبِ مِنَّا وَمِنْهُمُ إِذَا مَا الْتَقَيْنَا والمُسَالِمُ بَادِنُ[1]

---

(1) شرح أشعار الهذليين: ٣ / ١٢٠٠ – ١٢٠١. لوحته: غيرته. الحميت: النحي يرب، فإذا رب فهو حميت. بدبغ: أي جديد لم يستعمل. عظمه غير ذي حجم: أي عظمه ليس له حجم من السمن.

(2) شرح أشعار الهذليين: ٣ / ١٢٠٢. مقبلاً: أي مقدمًا. قرني: ندي وخصمي. المزاحف: موضع القتال: يستدمي: ينزف الدم.

فنتأكد أن الحرب ليست لهم، بل هم أبعد من أن يكونوا صلاتها، ودليل ذلك أن الحرب تبري أجساد أهلها، وفي المقابل يجبن البادن المسالم لركونه إلى طيب العيش بين النهم والشبع.

ويظهر في ثقافتهم أن البدانة قد اتصلت بكل خزي وعار يجلبه الرجل لنفسه، وقد يوصف بها الرجل في غير موضعها إن اقترف فعلًا يشينه ويلحق العار بقومه، كالإغضاء عن الثأر والمطالبة به، وإن كان المغضي شجاعًا يُرْهَبُ جانبه.

وقد جاء في خبر مقتل عبد الله بن معد يكرب أن المخزَّم بن سملة أحد بني مازن بن مالك قتله براعي إبله، فجاءت بنو مازن لعمرو بن معد يكرب فعرضوا عليه الدية، وخيروه ما أحب منها على ألا يطلب دم أخيه، فبلغ ذلك أخت عمرو كبشة فغضبت، فلما وافى الناس من الموسم، قالت تعير عمرًا:

وَأَرْسَلَ عَبْدُ اللهِ إِذْ حَانَ يَوْمُهُ ... إِلَى قَوْمِهِ لا تَعْقِلُوا لهُمُ دَمِي
وَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُمْ إِفالًا وأَبْكُرًا ... وأُتْرَك فِي بَيْتٍ بِصَعْدَةَ مُظْلِمِ
وَدَعْ عَنْكَ عَمْرًا إِنَّ عَمْرًا مُسَالِمٌ ... وهَلْ بَطْنُ عَمْرٍو غيرُ شِبْرَ لمَطْعَمِ(٢)

(١) السابق: ١ / ٤٥٠. الشاعر هو مالك بن خالد بن خناعة بن سعد بن هذيل. ويبدو من أخباره أنه كان شجاعًا وصاحب رأي. له شعر كثير. شرح أشعار الهذليين ٤٣٧/١. صلاة لحرب: الذي يصلونها ويشتركون فيها.

(٢) الأغاني: ١٥ / ٢١٨ وما بعدها. الشاعرة هي كبشة بنت معد يكرب بن عبد الله بن عمرو بن عصم بن عمرو بن زُبَيد. من بيت شرف وسيادة، وهي شقيقة الشاعر والفارس عمرو بن معد يكرب لأبيه. الأغاني: ١٥/ ٢١٩. الإفال: جمع أفيل وهو

وعن الخبر نفسه يقول الأفوه الأودي:

خَلِـــيْلانِ مُخْتَلِـــفٌ نَجْرُنَـــا ... أُحِـبُّ العَـلاءَ ويَهْـوَى السِـمَنْ
أُرِيْـــدُ دِمَـــاءَ بَنِـــي مَـــازِنٍ ... وَرَاقَ المُعَلَّـى بَيَـاضُ اللَّـبَنْ[1]

فيلتقي كل من الأفوه وكبشة عند بطنة عمرو الذي راقه لبن الدية التي عرضها عليه بنو مازن، وكيف أصبحت البطنة ورغبة السمن تلجم الشجعان عن طلب الثأر والكف عنه.

وفي السياق ذاته نجد زوجة تأبط شرًا تذكر بطنته، عندما قُتِلَ صاحب له في غارة من غاراتهم فيقول تأبط شرًا على لسانها:

أَلاَ تِلْكُمَا عِرْسِي مَنِيعةُ ضُمِّنَتْ ... مِنَ الله إِثْمًا مُسْتَسِرًا وعَالِنَا
تَقُولُ تَرَكْتَ صَاحِبًا لَكَ ضَائِعًا ... وجِئْتَ إِلَيْنَا فَارِقًا مُتَبَاطِنَا
إِذَا مَا تَرَكْتُ صَاحِبي لِثَلاَثَةٍ ... أَوْ اثْنَيْنِ مِثْلَيْنَا فَلاَ أُبْتُ آمِنَا[2]

ومعلوم أن الصعاليك الذين منهم تأبط شرًا أبعد قوم عن البطنة التي تنافي مجالهم في نشاط الصعلكة، والقائم على الرشاقة وقلة اللحم، وعندما وصفته زوجته منيعة –كما يسميها– بالمتباطن، لم تكن تعني ذلك صدقًا، وإنما أرادت فشل رأيه بترك صاحبه يقتل، ولم يأخذ بثأره، وكأنها أرادت

من أولاد الإبل مابلغ سبعة أشهر. الأبكر: الجمال. صعدة: مخلاف باليمن بينه وبين صنعاء ستون فرسخًا.

(١) الطرائف الأدبية، ص ٢٤. النجر: الأصل والحسب. العلا: المجد والسؤدد.

(٢) ديوان تأبط شرًا وأخباره، ص ٢١٢ – ٢١٣. الفارق: الذي فرق شعر رأسه وسرحه. المتباطن: الذي امتلأ بطنه.

توظيف هذا اللفظ للدلالة على نظرة الجاهليين له، واقتران السمنة والبطنة بكل خزي وعار في مجتمعهم، لذا نفهم تعليل تأبط شرًا في البيت الأخير سبب قتل صاحبه، وأن القوم تكاثروا عليهم فقتل، وهو بهذا لم ينفِ بطنة لم تكن موجودة فيه، بل نفى خزي ترك صاحبه يقتل ولم يدفع عنه.

وإن كان البطين السمين في الشعر الجاهلي مظنة كل خزي وعار وجبن، وهي من الأمور الجسيمة التي يُهدم بها شرف الرجال، وتهوي بمثاليتهم إلى قاع سحيق لا قرار له، فلا غضاضة أن يصبح عاجزًا عن أتفه الأمور التي لا تكسب شرفًا ولا مثالية. ويتضح ذلك من قول ابن الزبعرى:

إِنِّـــي عَلَـــى مَـــا فِـــيَّ مِـــنْ تَخَـــدُّدِ
وَدِقَّـــةٍ فـــي عَظْـــمِ سَـــاقِي ويَـــدِي
أَروِي عَلـــى ذِي العُكَـــنِ الضَّـــفَنْدَدِ(١)

فهذا الشاعر على ما فيه من نحول، ودقة في عظم ساقه ويده، يشد الحبل على ذي العُكَن التي انطوت بطنه من السمن، وغلظ جسمه وثقل لكثرة لحمه مع حمقه. فشد الحبل عليه وهو على ظهر الراحلة كي لا يقع من فوقها أمر تافه، لكنه يوحي بنظرة الاستهجان الجاهلية لكل ذي سمن وبطنة.

(١) شعر عبد الله بن الزبعرى، تحقيق: د. يحيى الجبوري، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨١م، ص ٣٤. التخدد: اضطراب اللحم من الهزال. أروي: أشد عليه الحبل. العكن: الإطواء في البطن من السمن. الضفندد: الغليظ الجسم الثقيل الكثير اللحم مع الحمق.

ولأن البدانة والسمنة أول ما تكون في الجسد، ثم تغلب على صاحبها فتؤثر في قوله وفعله، عمل الجاهليون على نفيها جسديًا مما يستتبع نفيها عن التأثير في سلوكياتهم القولية والفعلية، فكان المادح يصف ممدوحه بأنه غير ذي بطن، أو أنه ليس بطينًا ليجنبه رذائل الأعمال وقبائح الأقوال، كقول أوس بن حجر في مدح أحدهم:

وَمَا كَانَ وَقَّافًا إِذَا الخَيْلُ أَحْجَمَتْ وَمَا كَانَ مِبْطَانًا إِذَا مَا تَجَرَّدَا(١)

ومن ذلك أيضًا قول عمرو بن شأس في مدح قومه في الحرب التي نشبت بينهم وبين عبس، إذ يقول:

بِكُلِّ فَتًى يَعْصِي بِكُلِّ مُهَنَّدٍ نَدِغَيْرِ مِبْطَانِ العَشِيَّاتِ عَثْجَلِ(٢)

ويقول في معرض آخر واصفًا نفسه لفتاته، منمقًا حاله ونافيًا عنه البطنة:

أَبِلِّي إِنْ بَلِلْتِ بِأَرْيَحِيٍّ مِنَ الشُبَّانِ لاَ يُضْحِي بَطِيْنَا(٣)

وكذا جاء في رثاء متمم بن نويرة لأخيه مالك قوله:

لَقَدْ كَفَّنَ المِنْهَالُ تَحْتَ رِدَائِهِ فَتًى غَيْرَ مِبْطَانِ العَشِيَّاتِ أَرْوَعَا(٤)

---

(١) ديوان أوس بن حجر، ص ٢٠.

(٢) شعر عمرو بن شأس الأسدي، ص ٤٨. العثجل: عظيم البطن.

(٣) السابق، ص ٦٠.

(٤) المفضليات، ص ٢٦٥. الأروع: الذي إذا رأيته راعك بجماله وحسنه.

ومع كثرة رثاء متمم لأخيه، وتأبينه له في عدد من القصائد يعترف أنه ما كذب في شيء من صفته إلا وصفه بخمص البطن، وكان ذا بطن[١] مما يدل على حرصهم على نفي البطنة في مدائحهم ومراثيهم ومفاخرهم إن صدقًا وإن كذبا.

ومما يلفت النظر في بعض الأبيات السابقة أن نفي البطنة في منظور الجاهليين ينهض مقترنًا بنقض الصورة التي يكون عليها البطين في مجتمعهم. فلو كان السمين جبانًا رعديدًا، قابلًا للتنازل عن شرفه بالتخلي عما يراه المجتمع شرفًا كالثأر، فإنه عندما ينفيها عن نفسه أو غيره يقرنها بالشجاعة كقول أوس بن حجر: "وما كان وقافًا إذا الخيل أحجمت" أو بعزة النفس التي لا ترضى بزوال الشرف كما هو حال قوم عمرو بن شأس "بكل فتى يعصي بكل مهند" وهذا الوصف الدقيق، والتفريق بين إثبات البطنة ونفيها تأكيد على مذمتها والتقليل من شأن صاحبها، لذا تظهر البطنة في إطار الهجاء المباشر كقول دريد بن الصمة:

وَأَنْتَ امْرُؤٌ جَعْدُ القَفَا مُتَعَكِّسٌ مِنَ الأَقَطِ الحَوْلِي شَبْعَانُ كَانِبُ[٢]

انظر كيف أصبحت البطنة في غرض الهجاء معادلًا للفضائل التي تعودنا من الجاهليين أن يتهاجوا بها كالنسب والشجاعة والكرم، لما في طبيعتها من نسف لكل هذه القيم الموروثة في العرف الجاهلي، حتى أصبح الرجل يذم بها مفردةً فتذهب بمروءته.

---

(١) الأغاني: ١٥ / ٣٠١.

(٢) ديوان دريد بن الصمة الجشمي، ص ٣٠. متعكس: رجل متثني غضون القفا. الإقط: اللبن اليابس المتحجر. كانب: المستكثر من المتاع، ويقال الكانز.

وقد سأل أحد مقاول حمير ابنًا له عن أبغض الرجال إليه فقال: «المبطان النهيم»[١].

وجاء في أمثالهم قولهم: «سمن حتى صار كأنه الخَرْسُ»[٢]، والخرس الدن العظيم، أي الوعاء الذي يوضع فيه الشراب، ولتشبيه السمين به وجهان، وجه الضخامة الشكلية، ووجه قلة الانتفاع منه، وكذلك البطين السمين من وجهة نظرهم.

ولا يخفى على ذي فطنة أن السمن وليد الشبع وكثرة الأكل وقد بينا نظرة الجاهليين للطعام، وأنها تقوم على حد الكفاف والاكتفاء فإن خالف بعضهم ذلك، وحرص على أن يشبع نفسه وصل إلى السمن المعيب عندهم.

وقد تنبه الجاهليون لذلك فأدخلوا الشبع في حيز ذمهم، لرؤيتهم أثره في إنتاج السمن. فكان من المعايب عندهم أن يشبع الرجل إذا ضُيِّفَ.

يروي القالي في أماليه أن امرأة من العرب تخاصمت وزوجها فقالت له: «والله إن شربك لاشتفاف، وإن ضِجْعَتَكَ لا نجعاف، وإن شِمْلَتَك لالتِفاف، وإنك

لَتَشْبَعُ ليلة تُضَافُ، وتنام ليلة تخاف»[٣].

وجاء في خبر سلمى زوجة عروة بن الورد التي فارقته، وهي تثني عليه حتى اشتهر قولها فيه، وتزوجت من بني عمها رجلًا أرغمها أن تثني

---

(١) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، تأليف د. أحمد زكي صفوت، طبعة الحلبي، القاهرة: ١/ ٢١.

(٢) مجمع الأمثال: ٢ / ١١٢.

(٣) الأمالي: ١ / ١٠٥.

عليه كما أثنت على عروة في نَدِيّ قومه، فأقبلت سلمى فوقفت عليهم وقالت: «أنْعِمُوا صباحًا، إن هذا عزم عليَّ أن أثني عليه بما أعلم. ثم أقبلت عليه فقالت: والله إن شملتك لالتحاف، وإن شربك لاشتفاف، وإنك لتنام ليلة تخاف وتشبع ليلة تضاف، وما ترضي الأهل ولا الجانب، ثم انصرفت»[1]، وعلى ما بين القولين من تقارب يوحي بأن قائلهما واحد، إلا أنه يعكس ذم الشبع لاتصاله بالبطنة، ويصف لنا جانبًا من الصفات التي تذمها المرأة الجاهلية في الرجل، تماشيًا مع منظور المجتمع والعرف والقيم .

وبعد، فإن ما تقدم من عرض قد أفصح بما لا يدع مجالًا لشك ولا شاك، بأن البطنة والسمنة، وما يفضي إليها من الطرائق قد ذمت في تراث الجاهليين الأدبي نثره وشعره، وكان ذمهم لها جملة لا يأتي إلا من واقع البيئة التي عاشوا فيها، ورأوا عيانًا وبجلاءٍ تأثيرها على قيم المجتمع، ومُثُل الرجال، فكان لابد لهم من حربها وتسفيه أمر صاحبها، وتشويه صورته المجتمعية، كي يعي لنفسه وينظر إلى ما تعارف عليه العرب كلهم من احتقار البطنة والبطناء، ويصل إلى جوهر المثالية من أمر بسيط يقوم على اتحاده مع رؤية المجتمع للزاد التي ترى بأن حده يقف عند أقل القليل مما تحفظ به النفس، ويكتفي به المرء، ولا يورث البطنة وسمن الجسد التي تؤدي بدورها إلى الانتقاص والحط من القدر.

ولم يغب كذلك دور المرأة التي شاطرت الرجل في بغضها للبطنة. فعندما أحست أن بعلها سائر في هذا الاتجاه ذمت فيه الشبع، أو لنقل نبهت على سيره في طريق يفضي ويوصل إلى البطنة ولأن المجتمع بنسائه ورجاله يروم المثالية كان لزامًا على المرأة في نطاقها الضيق المتمثل بالأسرة أن

([1]) الأغاني: ٣ / ٧٧.

تقبح هذا الفعل في عين ربِّ الأسرة الذي يحلم أن يشب أبناؤه على الشرف ومكارم الأخلاق لا على البطنة وسبلها الذميمة.

كما لاحظ العقلاء منهم أن سمنة الجسد من خصائص النساء، ولا ينبغي للرجل في ذلك العصر أن يكون على مقربة –مهما كان نوعها– من المرأة، وبهذا تسهم المرأة بشكل مباشر وآخر غير مباشر على رؤية الرجل العامة للبطنة.

الفصل الثالث

مدح الجوع والهزال

وفيهما يظهر فضل الجوع والهزال وتغني شعراء الجاهلية بهما، وعدهما من الفضائل التي يمدح ويفتخر بهما. وهي من أبسط الأشياء، إلا أن مراميها بعيدة، وأسبابها وثيقة في الحياة العربية، ومن خلالها نستطيع أن ندلل على عقلية متميزة فريدة، لطالما شوهت، ووصمت بالجهل وتدني مستوى الأخلاق والقيم.

ألمحنا في بداية هذه الدراسة إلى أن الجوع حقيقة العصر الجاهلي فرضته تلك البيئة الفقيرة بقلة مقوماتها، إذ لا مطر ولا زرع يخفف من بؤس العيش في صحراء واسعة مترامية الأطراف، فكان لزامًا على أهلها أن يخوضوا معركة حاسمة مع هذه البيئة الشحيحة، التي إن استسلموا لها حصدت أرواحهم، ومزقتهم دون آلة وسلاح. فلم يكن بدٌ من إظهار الجاهلي لكافة عتاده في هذه الحرب، وقد ذكرنا ما أثمرته عقليته في التصدي لخطر الجوع من ضيافة وغزو وصيد، وكانت حلولًا ناجحة وَقَتْ طوائف من الجياع في ذلك العصر، وحَدَّتْ من خطر الجوع وأشعرتهم بالانتصار عليه، فاستشرف الجاهلي في نفسه الشجاعة وأخذ يحارب البيئة بالسلاح ذاته الذي حاربته به.

عندما أصبح الجوع أمرًا محتومًا على عرب الجاهلية ارتضوه لأنفسهم، وأحالوه من معول هدم إلى معول بناء، فرأى الجاهلي أن يوظف هذا الجوع بما يعود على ذاته وجسده بالنفع، لكي يفتخر ويُمدح بما فُرض عليه فرضًا، ولم يكن له حرية الاختيار، فدخل في صراع مع الطبيعة بهذا الشأن، ووصل فيه إلى التفوق بثباته أمام نابها ومخلبها، وكثيرًا ما تفاخر

الشعراء بصبرهم على الجوع وهزيمته حتى أضحت هذه المفاخر انتصارات حقيقية للجاهليين على ظروف بيئتهم ومناخها .

إنك لو تأملت ما يبثه الشعراء وأصحاب المروءات في أشعارهم من أحاديث الجوع، لخيل إليك أنه يطلب لذاته كالشرف والعزة والكرم وغيرها من الخلال الكريمة التي تورث الثناء والذكر العطر، ولو لم يكن أمره كذلك ما عجت أشعارهم بذكره ومدح أهله.

إن ما قدمناه من حديث في إطار الجوع وما يتعلق به أعطانا صورة خارجية تمثلت بحقيقته ووسائل مكافحته والنماذج التي كانت عرضة للجوع أكثر من غيرها، وهنا نستجلي صورته الداخلية النابعة من عمق الذات العربية التي لا تقهرها طبيعة، ولا يهزمها جوع.

ويجب التنويه قبل عرض الشعر إلى أن لفظة الجوع والهزال قد تتفق في المعنى في بعض الأبيات، ويقصد الجوع بها، كقول الأعشى:

أَبْـــيَضُ لاَ يَرْهَـــبُ الهُـــزَالَ وَلاَ يَقْطَـعُ رِحْمًـا وَلاَ يَخُـونُ إلا[1]

والهزال كان مفخرة لرجال ذلك العصر، فكيف يرهبونه؟ لهذا نظن أن لفظة الهزال في هذا البيت تعني الجوع، وعدم رهبته نوع من انتصار الجاهليين عليه.

كما نود الإشارة إلى أن نحول الجسد الذي هو الهزال من خصال مدح الجاهلي في ذلك العصر، ومدح الهزال يقتضي بالضرورة مدح الجوع،

(1) ديوان الأعشى الكبير، ص ٢٣٥. الإل: العهد والميثاق.

لأنه من نواتجه؛ إذ لا هزال بلا جوع ولا جوع بلا هزال، ولذلك عقب كثير من محققي التراث على بيتي أعشى باهلة اللذين يقول فيهما:

طَاوِي المَصيرِ، عَلَى العَزَّاء مُنْصَلِتٌ   بِـالقَوْمِ لَيْلَـةَ لاَ مَـاءٌ وَلاَ شَـجَرُ
مُهَفْهَـفٌ أَهْضَـمُ الكَشْـحَيْنِ مُنْخَـرِقٌ   عَنْـهُ القَمِيْصُ، لِسَيْرِ اللَّيْلِ مُحْتَقِرُ[1]

إن العرب تمدح الهزال وتذم السمن، مع العلم أن البيت الأول تأكيد لجوع الشخص، والبيت الثاني مدح هزاله وهذه محصلة طبيعية للجوع ونتيجة من نواتجه.

وعندما نتتبع مضمون الجوع والهزال في الشعر الجاهلي، يتبادر إلينا في إطار مشرق، يمتزج مع صفات كثيرة حسنة، ليقدم الإنسان الجاهلي في صورة تدنو من الكمال، وترفع لواء الشرف، وتحقق له الغاية والمطمح، كقول دريد بن الصمة في داليته:

تَرَاهُ خَمِيْصَ البَطْنِ والزادُ حَاضِرٌ   عَتِيْدٌ وَيَغْدُو فِي القَمِيْصِ المُقَدَّدِ
وَإِنْ مَسَّهُ الإِقْوَاءُ وَالجَهْدُ زَادَهُ   سَمَاحًا وإتلافًا لِمَا كَانَ في اليَدِ[2]

فدريد يطلعنا على مناقب أخيه، فيرى أن الجوع منقبة له، تزيده عفة وصلابة، وعلى قدر جهده من الجوع تكون سماحته وإتلافه لما في يده.

---

(1) انظر: جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، تحقيق: علي البجاوي، ص ٥٧٣؛ خزانة الأدب، للبغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة الخانجي، القاهرة: ١ / ١٩٦، والأصمعيات، ص ٩٠. المصير: واحد المصران، وهي الأمعاء. العزاء: الشدة والجهد. المنصلت: الماضي في الحوائج. المهفهف: الخميص البطن.

(2) ديوان دريد بن الصمة الجشمي، ص ٥٠. عتيد: مُعَدٌّ حَاضِرٌ. المقدد: الممزق. الإقواء: الفقر والإعسار.

فجوع المرثي تمخض عنه جملة من الخلال الحميدة فأصبح الجوع بها منتجًا للمكرمات. ولا يغيب عنا أن عبد الله بن الصمة قد اختار لنفسه الجوع مع وجود الزاد، وفي هذا تمايز بين لونين من الجوع، لون تفرضه البيئة، وآخر يفرضه الإنسان على نفسه شرفًا وسماحة.

ويرى أبو يزيد يحيى العقيلي أن الجوع يُزَهِّدُ في طلب المال والدنيا وَيُقَوِّمْ الذات نفسيًا، ويصلح شأن صاحبه، يقول:

وَإِنَّـكَ مَـا سَـلَّيْتَ نَفْسًـا شَـحِيْحَةً عَنِ المَالِ فِي الدُّنْيَا بِمِثْلِ المَجَاوِعِ[1]

ويقول آخر:

وَكَـأس ذَنُوبَـاتٍ دَعَـوْتُ بسَـحْرَةٍ إِلَيْهَا فَتًى لاَ يَحْفِلُ اللَّوْمَ أَرْوَعَا
خَمِيْصَ الحَشَا هَشًا يُرَاحُ إِلى النَّدَى قَؤُولاً إِذَا مَا زَالَ صَاحِبُهُ لَعَا[2]

ويرد السليك على صاحبته استهزاءها برقة جسده وقلة لحمه بقوله لها:

هَزِئَـتْ أُمَامَـةُ أَنْ رَأَتْ بِـيَ رِقَّـةً وَفَمًـا بِـهِ فَقَـمٌ وَجِلْـدٌ أَسْـوَدُ
أُعْطِي إِذَا النَّفْسُ الشَّعَاعُ تَطَلَّعَتْ مَالِي وَأَطْعَنُ والفَرائِصُ تُرْعَدُ[3]

---

(1) شعراء بني عقيل وشعرهم في الجاهلية والإسلام حتى آخر العصر الأموي، جمع وتحقيق: عبد العزيز بن محمد الفيصل: ٢ / ١٢٦. الشاعر لم أجد له ترجمة.

(2) شعر ضبة وأخبارها في الجاهلية والإسلام، ص ١٥٢. الذنوب: الدلو الملأى بالماء، وهنا يشبه كأس الخمر بها. يراح: أي يجد ريحه. لعا: من اللعو واللعا، وتعني الشره والحرص.

(3) ديوان السليك بن السلكة، ص ٦٦. الرقة: قلة اللحم. الفقم: ما يصيب الفم من تقدم الثنايا السفلى فلا تقع عليها العليا إذا ضم الرجل فاه. نفس شعاع: نفس مضطربة

ويبدو من رده الفخرُ بنفسه، لكنه فخر المقتدر على رد نحول جسده، فهو وإن كان نحيلًا رقيق الجسم، إلا أنه يعطي ماله حين خاف الشحيح نوائب الدهر فأمسك ماله وحبسه عليه. ويضيف السليك إلى فخره خصلة أخرى هي الشجاعة، وكأنه يقول لأمامة إن رقة جسدي لم تضعف من همتي، ولم تجعلني جبانًا، والدليل أني أطاعن وأقاتل في الحروب وغيري كثرٌ ترتعد فرائصهم خوفًا وجبنًا.

من خلال ما عرضنا من أبيات يظهر لنا أن الجوع والهزال يقصدان قصدًا في الجاهلية، وأنهما يعادلان ويقترنان بالكثير من الخصال الحميدة التي تدفع شراع الشرف ليمضي قدمًا نحو العالم المثالي، بل إنهما يتيحان الفرصة أمام منتهجهما ليتأمل ذاته، وينقي نفسه من الشوائب بهما، إذ هما علاج روحي يتخلص المستطب بهما من سوءات ودنس الرذائل في ذلك العصر.

وإذا وقفنا أمام قول حاتم الطائي:

أَمَـا والَّـذِي لاَ يَعْلَـمُ الغَيْـبَ غَيْـرُهُ وَيُحْيي العِظَامَ البِيْضَ وَهْيَ رَمِيمُ
لَقَدْ كُنْتُ أَطْوِي البَطْنَ والزَّادُ يُشْتَهَى مَخَافـةَ يَوْمًـا أَنْ يُقَـالَ لَئِـيْمُ[1]

نجده يؤكد كلامه بالقسم في البيت الأول، ويخبر أنه يقبل الجوع مع وجود الزاد خوفًا من وصمه باللؤم، وهذا بلا شك تثقيف وتهذيب للنفس، لتتخلص من شهوة الطعام وتتجنب الذم وتكسب الحمد.

متفرقة الهموم. تطلعت: ترقبت. الفرائص: لحمة عند نغض الكتف، في وسط الجنب، وهما فريصتان يرتعدان عند الفزع.

([1]) ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي، ص ١٨١.

ويشترك مع حاتم في هذا شاعر آخر هو عبيد بن الأبرص، لكنه يختلف مع حاتم في طريقة تفضيله للجوع، فإن كان حاتم خاف وصفه باللؤم فإن عبيدًا دعا على نفسه إن هو أذعن له وخشع، وزاد أن أنكر جعل عِرْضه عند بطنه وهو يعلم أنه سبيل السب لا مناص من ذلك، يقول عبيد:

إِذَا مَـا كَـانَ عِرْضِـي عِنْـدَ بَطْنِـي فَـأَيْنَ مِـن ان أُسَـبَّ بِـهِ مَنَاصِـي
فَـإِنْ خَفَّـتْ لِجُـوعِ الـبَطْنِ رِجْلِـي فَـــدقَّ اللهُ رِجْلِـــي بالمُعَـــاصِ[1]

وإذا كـان اخـتلاف التعبيـر بَيّنًـا بَـيْنَ عبيـد وحـاتم، إلا أن جامعهمـا النفور من الهجاء والقدح وإصلاح النفس وتهذيبها بالتجوع مع حضور الزاد وتوفره.

وقد روى أبو الفرج في أغانيه عن الأصمعي أنه قال: «أقفر أبو خراش الهذلي من الزاد أيامًا، ثم مر بامرأة من هذيل جزلة شريفة، فأمرت له بشاة فذبحت وشويت، فلما وجد بطنه ريح الطعام قرقر فضرب بيده على بطنه وقال: إنك لتقرقر لرائحة الطعام، والله لا طعمت منه شيئًا ... ثم مضى[2]، وأنشأ يقول:

وَإِنِّـي لأُثْـوِي الجُـوعَ حَتَّـى يَمَلَّنِـي فَيَـذْهَبَ لَـمْ يُـدْنِس ثِيَـابِي ولا جِرْمِـي
وَأَغْتَبِــقُ المــاءَ القَــرَاحَ فــأَنْتَهِي إِذَا الـزَّادُ أَمْسَـى للمُـزَلَّجِ ذَا طَعْـمِ[3]

---

(1) ديوان عبيد بن الأبرص، ص ٧٩. المناص: الملجأ والمفر. المعاص: التواء في عصب الرجل.

(2) الأغاني: ٢١/ ٢١٩.

(3) شرح أشعار الهذليين: ٣ / ١١٩٩.

وهذا لون من ألوان الانتصار على شهوة الطعام، لا يتأتى إلا لرجل شجاع النفس والقلب كأبي خراش الذي يرفض الزاد على جوعه واحتياجه له.

ولا شك أن هذا الحرمان من الزاد مع وجوده موصل إلى الهزال والنحول. وكان لعرب الجاهلية في الهزال رأي لا يختلف عن رأيهم بالجوع، إذ رأوا أن الهزال من سمات الشجاعة والفروسية، وشاع في شعرهم تشبيه هذا النحيل بالنصل أو الرمح وهي من آلة الحرب وعدتها، وكثيرًا ما يفتخر العربي بشدة نصله وصلابة رمحه، وكأن شجاعة الفارس يتبعها بأس عدته وقوتها. يقول عنترة بن شداد:

عَجِبَتْ عُبَيْلَةُ مِنْ فَتًى مُتَبَذِّلِ عَارِي الأَشَاجِعِ شَاحِبٍ كَالمُنْصُلِ[1]

ويقول الحادرة:

وَمُنْشَقِّ أَعْطَافِ القَمِيْصِ كَأَنَّهُ إِذَا لاَحَتِ الظَّلْمَاءُ نَارٌ تَوَقَّدُ
فَتًى لاَ يَنَالُ الزَّادَ إِلاَّ مُعَذِّرًا كَأَعْلَى سِنَانِ الرُّمْحِ بَلْ هُوَ أَنْجَدُ[2]

هذا الهزال الذي شَكَّلَ أجساد الرجال، وجعلها كالمنصل ورأس الرمح لم يكن يهدف من ورائه، إلا إلى الشجاعة، ونستطيع فهم ذلك من وجه آخر اقتضاه ذلك التلازم بين الفارس الشجاع وسلاحه، فإن كان الزاد يوصل الجاهلي إلى الصلابة والشدة، حتى يصبح كالنصل وسنان الرمح فهذه من علامات الشجاعة ولا ريب.

---

(1) ديوان عنترة، ص ٢٥٣. المتبذل: المتصرف في الحروب. الشاحب: المتغير. العاري: القليل اللحم. الأشاجع: عصب ظاهر الكف. المنصل: السيف.

(2) ديوان شعر الحادرة، ص ٣٤٩.

وتظهر الشجاعة عند بعضهم بشكل آخر، فمع التأكيد على طوى البطن وخمصه تظهر صورة الصقر في المشهد الوصفي شاخصًا مشرفًا كأنه على مربأة يتحين فرصة، ويلتمس غرة. هذا ما صورته مية بنت ضرار الضبية في رثائها لأخيها قبيصة بن ضرار حيث قالت:

لا تَبْعَدَنَّ وكُلّ حَيٍّ ذَاهِبُ   زَيْنَ المَجَالِسِ والنَّدَى قَبِيْصَا
يَطْوِي إِذَا مَا الشُّحُّ أَبْهَمَ قُفْلَهُ   بَطْنًا مِنَ الزَّادِ الخَبِيثِ خَمِيْصَا
وكَأَنَّهُ صَقْرٌ بِأَعْلَى مَرْبَإٍ   مِنْ كُلِّ مُرْتَبأ تَرَاهُ شَخَيْصَا
يَسْرُ الشِّتَاءِ وفَارِسٌ ذُو قِدْمَةٍ   في الحَرْبِ إِنْ حَاصَ الرِّجَالُ مَحِيْصَا(١)

ومع اختيار الصقر رمزًا للشجاعة في أبيات مية يقترن اختياره بالهزال، إذ إن الصقر من أصغر الجوارح جسمًا وأقلهن لحمًا ولا يقارن بالنسور والعقبان على وجه التفريق جسديًا، وإن كان من أضرى الجوارح.

ومن الجاهليين من يرى شجاعته بغير السلاح، وإنما بسرعة العدو وهي من سمات الصعاليك العدائين، وفخرهم بها فخر بالشجاعة وبالهزال على حد سواء؛ إذ لا عدو بلا هزال ونحافة، لذا يفخر أبو خراش الهذلي بابنه خراش الذي تخرج في مدرسته صعلوكًا نابهًا جمع إلى هزاله سرعة العدو فقال مبتهجًا بما وصلت إليه مناقب خراش في الصعلكة:

---

(١) شعر ضبة وأخبارها في الجاهلية والإسلام، ص١٥٩. الشاعرة هي مية بنت ضرار بن عمرو بن مالك بن زيد، من بني ضبة. عاشت قبيل الإسلام ، ولعلها أدركته، ولم يعرف لها خبر فيه. واشتهرت بأشعار قالتها في رثاء أخ لها اسمه (قبيصة) وكان أبوها سيد قومه في الجاهلية. الأعلام للزركلي ٣٤٢/٧. الندي: الحي. الشح: البخل. أبهم قفله: أحكم أمره، وجعل كالفرض. مربإ: المكان المرتفع الذي يستخدم للمراقبة. حاص: انحرف ولم يمض بالأمر.

ولَـمْ يَـكُ مَثْلُـوجَ الفُـؤَادِ مُهَبَّجًـا أَضَاع الشَّبَابَ فِـي الرَّبِيْلَـة والخَفْضِ
ولكِنَّـــهُ قَــدْ نَازَعَتْــهُ مَخَــامِصٌ عَلَـى أَنَّـهُ ذُو مِـرَّةٍ صَـادِقُ الـنَّهْضِ
كَـــأَنَّهُمُ يُشَـــبَّثُونَ بِطَـــائرٍ خَفِيفِ المُشَاشِ عَظْمُهُ غَيْرُ ذِي نَحْضِ[1]

أتاحت المزاوجة بين الهزال والشجاعة للجاهليين الفخر بهذه الخصلة مادامت لم تفرض عليهم، وأرادوها بأنفسهم طائعين غير مكرهين ولا مجبرين عليها. يقول عروة بن الورد:

قَعِيْـدُكِ عَمْـرَ اللهِ هَـلْ تَعْلَمِيْنَنِـي كَرِيْمًـا إِذَا اسْـوَدَّ الأَنَامِـلُ أَزْهَـرَا
صَـبُورًا عَلَـى رُزْءِ المَـوَالِي وحَافِظًـا لِعِرْضِـي حَتَّـى يُؤْكَـلَ النَبْتُ أَخْضَرَا
أَقَـبُّ ومِخْمَـاصُ الشِـتَاءِ مُـرَزَّأٌ إِذَا اغْبَـرَّ أَوْلاَدُ الأَذِلَّـةِ أَسْـفرَا[2]

فعروة يزيد على فخره بالكرم والصبر وحفظ العرض فخره بهزاله وضمور بطنه، وعلى نحول جسده بإسفار وجهه للضيف، وعدم تجهمه أمامه كما يفعل أولاد اللئام من الأشحاء والبخلاء.

ويظهر عظم الفخر في بيت لتأبط شرًا يقول فيه:

---

(1) شرح أشعار الهذليين: ٣ / ١٢٣٠ – ١٢٣١. مثلوج: ضعيف. مهبج: ثقيل. الربيلة: كثرة اللحم وتمامه. نازعته مخامص: أي جاذبه جوع. صادق النهض: حين ينهض في الأرض صادق لا يكذب. خفيف المشاش: أي ليس كثير لحم. النحض: اللحم.

(2) ديوان عروة بن الورد، ص ١٤٠– ١٤١. قعيدك: مقاعدك: اسود الأنامل: غشيها السواد من دخان النار، وهي كناية عن البرد الشديد. أزهر: أبيض، مشرق الوجه. رزء الموالي: التكرم عليهم، ومنحهم من الخير. يؤكل النبت أخضرا: كناية عن ذهاب الشتاء ومجيء الربيع. أقب: ضامر. مرزأ: للناس في أمواله نصيب. اغبر أولاد الأذلة: تجهم وجه أولاد اللئام، أي عبسوا في وجه الأضياف. أسفر: أشرق.

قَلِيـــلُ ادِّخَـــارِ الـــزَّادِ إِلاَّ تَعِلَّـــةً وقَدْنَشَزَ الشُّرسُوفُ والْتَصَقَ المِعى[1]

ومع ظهور هذه الشراسف التي هي الأضلاع، والتصاق الأمعاء بالظهر كناية عن ضمور البطن، وشدة الحاجة إلى الطعام يفتخر تأبط شرًا بعدم ادخاره للزاد إلا ما يقيم به أوده، ويضمن له الحياة، حتى وصل إلى هذه الصورة من النحول الشديد التي عدها مكرمة يفخر بها.

ويفتخر الشنفرى بطي حواياه من الخمص، ويشبهها بخيوط الفاتل التي أحكم فتلها، وذلك في قوله:

وَأَطْوِي عَلَى الخُمْصِ الحَوَايا كَمَا انْطَوَتْ خُيُوطَةُ مَارِيٍّ تُغَارُ وتُفْتَلُ[2]

وقد ظن من درس صورة الإنسان في الشعر الجاهلي، أن الفقير ليس بمقدوره إدراك المجد، وليس بمقدوره التباهي والتفاخر بأعماله وأفعاله[3]، فكيف بنا الآن ونحن نجد الجوع والهزال ينتقلان من طور الذمامة، إلى طور التباهي والتفاخر، وبمقدور الفقراء على وجه الخصوص أن يفتخروا بجوعهم وهزالهم، وأن يصلوا به إلى غاية قصوى غبطهم السادة والأشراف والأغنياء عليها، فزاحموهم في مباهاتهم، ليرتقوا في مراتب المجد الجاهلية التي كانت

(1) ديوان تأبط شرًا وأخباره، ص ١١٥. التعلة: القليل الذي يتعلل به ويسد به الرمق من الزاد. نشز: برز من شدة الضمور. والشرسوف: واحد الشراسيف، وهي أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن. التصق المعى: أي التصقت الأمعاء كناية عن انطواء البطن وضموره.

(2) ديوان الشنفرى، ص ٥٨.

(3) الإنسان في الشعر الجاهلي، د. عبد الغني أحمد زيتوني، طبعة مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ط١، ٢٠٠١م، ص ٢٥٩.

تمس الفقراء دون غيرهم، ليضيفوا مجدًا إلى مجدهم، فتنتظم سلسلة المجد جامعة بين أمور جسيمة عظيمة كدفع الديات وأداء الحمالات والمنح وإطعام الطعام وفك الأسير، وبين أمور أقل جسامة وعظمة تتمثل بهزال الجسم والصبر على الجوع والفخر بهما، وهما من أخص خصائص الفقراء، وألصقهما بمعيشتهم.

ولعل في نظرة المشاركة بالهزال والنحافة بين الفقراء والأغنياء، ما هو أبعد من حدود الفقر المجرد، حيث تَبُتَ لنا أن الهزال من صفات الشجعان الأقوياء، وما داموا كذلك فلا غرو أن يُعتمد عليهم ويركن إليهم في البأساء والضراء، وحين تشتجر العوالي ويغطي النقيع جو السماء، يقول المرقش الأكبر:

بِفَتًى نَاحِفٍ وَأَمْرٍ أَحَذٍّ وحُسَامٍ كَالمِلْحِ طَوْعِ اليَمِيْنِ[1]

ويقول تأبط شرًا:

لَكِنَّمَا عِوَلِي إِنْ كُنْتُ ذَا عِوَلٍ عَلَى بَصِيرٍ بِكُسبِ الحَمْدِ سَبَّاقِ
سَبَّاقِ غَايَاتِ مَجْدٍ فِي عَشِيرتِهِ مُرَجِّعِ الصَّوْتِ هَدَّا بَيْنَ أَرْفَاقِ
عَارِي الظَّنَابِيبِ مُمْتَدٍّ نَوَاشِرُهُ مِدْلاَجِ أَدْهَمَ وَاهِي المَاءِ غَسَّاقِ
حَمَّالِ أَلْوِيَةٍ شَهَّادِ أَنْدِيَةٍ قَوَّالِ مُحْكَمَةٍ جَوَّابِ آفَاقِ
فَذَاكَ هَمِّي وغَزْوِي أَسْتَغِيثُ بِهِ إِذَا اسْتَغَثْتُ بِضَافِي الرَّأسِ نَغَّاقِ[2]

---

(1) المفضليات، ص ٢٢٨. أحذ: خفيف.

(2) ديوان تأبط شرًا وأخباره، ص ١٣٥ وما بعدها. عولي: اعتمادي. مرجع الصوت: هو الآمر الناهي. أرفاق: أصحاب. الظنابيب: جمع ظنبوب، وهو حرف عضم الساق. النواشر: عروق ظاهر الكف. مدلاج: من الإدلاج وهو سير الليل. الأدهم: الليل.

فبيت المرقش وأبيات تأبط شرًا تجتمع في كون الناحف وعاري الظنابيب ممتد النواشر من نحافته هما من يعول عليهما في الحرب والغارة، على خلاف السمين الذي رأيناه في الشعر جبانًا فَرقًا، يؤتى به للكثرة فقط، ولا يرجح ميزان حرب هو فيها، وما هي إلا جولة واحدة حتى يتعفر جسده بتراب الأرض صريعًا مجدلًا. أما الناحف الهزيل فهو صاحب النصر تراقبه الأنظار شاخصة، كي يحسم لها أمر المعركة، وتتقي القبيلة بشجاعته القتلَ والأسرَ، كما يقول عنترة:

إِذْ يَتَّقُونَ بِيَ الأَسِنَّةَ لَمْ أَخِمْ عَنْهَا ولَوْ أَنِّي تَضَايَقَ مُقْدَمِي
لَمَّا رَأَيْتُ القَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ يَتَذَامَرُونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمَّمِ
يَدْعُونَ عَنْتَرَ والرِّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لَبَانِ الأَدْهَمِ[1]

وقوله في موضع آخر من معلقته:

ولَقَد شَفَى نَفْسِي وأَبْرَأَ سُقْمَهَا قِيْلُ الفَوَارِسِ وَيْكَ عَنْتَرَ قَدِّمِ[2]

ومع تعويل عبس على فارسها عنترة، وتقديمه في الحرب ومناداته في الوغى، إلا أنه يقول على لسان عبلة، كما مر معنا:

الغساق: شديد الظلمة. واهي الماء: كثير المطر. ضافي الرأس: كثير الشعر. النغاق: ذو الصوت الشديد.

(1) ديوان عنترة، ص ٢١٥– ٢١٦. لم أخم: لم أجبن. يتذامرون: يحث بعضهم بعضًا. الأشطان: الحبال. اللبان: الصدر. الأدهم: فرس عنترة.

(2) السابق، ص ٢١٩. ويك: أي ويلك، وقيل وي تنبيه والكاف للخطاب.

عَجِبَتْ عُبَيْلَةُ مِنْ فَتًى مُتَبَذِلِ عَارِي الأَشَاجِعِ شَاحِبٍ كالمُنْصلِ[1]

وهكذا يرفع الهزال أصحابه، ليصبحوا مؤثرين في تاريخ القبيلة التي تعتد بأيامها، ويخلد في ذاكرتها أسماء الفرسان وأوصافهم، ويتناقل الخلف عن السلف أخبارهم وما قيل فيهم من شعر، حتى قال الحطيئة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما سأله عن حربهم، كنا ألف حازم، قال: وكيف؟ قال: كان فينا قيس بن زهير وكان حازمًا وكنا لا نعصيه، وكنا نقدم إقدام عنترة، ونأتم بشعر عروة بن الورد، وننقاد لأمر الربيع بن زياد[2]، ثم نأتي بميزان اجتماعي نضع في كفته قيس بن زهير والربيع بن زياد من السادة والأشراف في عبس، ونضع في كفته الأخرى عنترة وعروة بن الورد الفرسان والشعراء وأصحاب الهزال ونحول الجسد فيها فتتساوى كفتا الميزان في الشرف والمجد مادام الأمر متصلًا بالقبيلة، فإن تبدل الحال وسكن القوم، وخلدوا إلى الدعة والراحة صار التفاخر بينهم ذاتيًا يمتاح الشاعر فيه من مكتسبات الشرف الذي داوم على صيانته في الشدة والرخاء، لذا لا نتعجب من قول عروة بن الورد لقيس بن زهير:

إِنِّي امْرؤٌ عَافِي إِنَائِيَ شِرْكَةٌ وَأَنْتَ امرؤٌ عَافِي إِنَائِكَ وَاحِدُ
أَتَهْزَأُ مِنِّي أَنْ سَمِنْتَ وأَنْ تَرَى بِوَجْهِيَ شُحُوبَ الحَقِّ والحَقُّ جَاهِدُ
أُقَسِّمُ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيْرَةٍ وأَحْسُو قَرَاحَ المَاءِ والمَاءُ بَارِدُ

---

(1) السابق، ص ٢٥٣.

(2) الأغاني: ٣ / ٧٣.

ومَنْ يُؤْثِرِ الحَقَّ النَّؤُوبَ يَكُنْ بِهِ خَصَاصَةُ جِسْمٍ وَهْوَ طَيَّانُ مَاجِدُ[1]

حيث لم يجد عروة وهو الصعلوك الفقير ما يفاخر به قيس بن زهير السيد الشريف إلا نحافة الجسم، التي لزمته لجوده وكرمه وإيثاره للحق، وتقديم غيره عليه في المأكل والمشرب، كما وجد نهم قيس مدخلًا لثلبه وتعييره بكثرة مأكله. فهذه الخصائص التي يقف بها أفراد المجتمع أمام سادتهم يفاخرونهم بها، لا شك أن قيمتها الاجتماعية والنفسية عظيمة، ولو لم تكن كذلك لما كثر ذكرها في الشعر فخرًا ومدحًا، وذكر نقيضها هجاءً وذمًا، ولما أصبحت معادلًا لكثير من قيمهم الاجتماعية التي لا يعدلها شرف في نظرهم.

وإن أردنا استجلاء قيمة الهزال من زاوية أخرى، وتأكيد مكانتها في الحياة الاجتماعية، ونفس العربي الجاهلي، فإننا نرى حبهم للهزال يغذيه إعجاب المرأة بالرجل النحيل الضامر، إذ ترى بعين أنوثتها شجاعته وعفته، وترى بمنظور عصرها الحربي القائم على الغزو والغارة قدرته على حمايتها والدفاع عنها، ومنعها من السبي الذي لا يعادله عار على القبيلة، ولا يوازيه ذل للمرأة العربية. لذا أبدت المرأة إعجابها بضمور الرجل، وجعلته وسيلة للثناء عليه كما قالت سلمى زوجة عروة بن الورد عندما فارقته: «والله إنك ما علمت لضحوك مقبلًا كسوب مدبرًا خفيف على متن الفرس ثقيل على العدو طويل العماد كثير الرماد راضي الأهل والجانب»[2]. فالخفة على ظهر

---

(1) ديوان عروة بن الورد، ص ١٢٣ وما بعدها. عافي: منتهي. شركة: جماعة. الخصاصة: الفقر، ويقصد بها هنا ضعف الجسم. طيان: جائع. ماجد: مفضال، كثير الخير.

(2) الأغاني: ٣ / ٧٧.

الفرس كناية عن النحافة والضمور وهي من خصائص الفرسان، وقد صرح عروة بشيء من هذا في شعره حيث يقول:

بُنِيْتُ عَلَى خَلْقِ الرِّجَالِ بِأَعْظُمٍ جِفَافٍ تَثَنَّى تَحْتَهُنَّ المَفَاصِلُ[1]

فلا مجال للسمن مع خفة العظم، وتثني المفاصل، وهي من الأمور التي تخص الناحل الخميص، لأنها توحي بخفة الحركة ولين الجسد، وهذا لا يتهيأ لذوي السمن والأجساد الضخمة.

وإذا كان الشبع يغري بالسمن، فإن دفعه ونفيه عن النفس يؤكد الهزال والنحافة، ووضعه في متخير المرأة ونظرتها للرجل ومقوماته التي تعجبها دليل على نظرة أنثوية مثالية للهزيل، لذلك عندما سُئِلَتْ فاطمة بنت الخرشب الأنمارية عن بنيها ووصفتهم قالت في عُمارة: «لا يَنَامُ لَيْلَةَ يَخَافُ ولا يَشْبَعُ لَيلَةَ يُضَافُ»[2]. وهذا داخل ضمن إطار العناية بالجسد، ونبذ السمنة وصيانة النفس من دنس التكالب على المأكل، وتكريس الحياة للشرف والرفعة، والسمو بالذات بدل الانحطاط بها.

وتضع هند بنت الخس في كلام طويل توازن فيه بين الحسن والقبح النحافة في قائمة الحسن، وتصف صاحبها بالشدة حيث تقول: «أَشَدُّ الرِّجَالِ الأَعْجَفُ»[3]، وعندما تُضَمِّنُ هذه المرأة الجاهلية حديثها صفات الرجال وتقرن بين الشدة والنحول في معرض الحسن والبهاء، فإنها تؤكد على

---

(1) ديوان عروة بن الورد، ص ٢٢٦.

(2) الأغاني: ١٧ / ١٨٥.

(3) جمهرة خطب العرب، ص ٧٢.

أمرين، الأول: إعجابها بنحافة الرجل، وثانيهما: تأكيد الرؤية العامة للعصر التي ترى النحول والهزال شرفًا يمدح صاحبه، ويحق له الفخر ولا نكر عليه.

من كل ما ذكرنا نصل إلى نتيجة مهمة هي أن الجوع الذي فرضته البيئة في بعض فصول السنة، واشترك فيه الجاهليون جميعًا، والجوع الذي خلف الهزال في أوقات الخصب والنماء، وقصده بعض رجالات العصر الجاهلي تعففًا حينًا، وتهذيبًا للنفس حينًا آخر منح العصر وفرة من الخصال لمن أراد الفخر والمدح، ورسم لنا صورة لمجتمعات قبلية تزدهر في جوانبها حياة مثالية طافحة بالقيم الأخلاقية، وتخفي في زواياها المظلمة، ولا تكاد تبين مثالب ومعايب تحاربها مثالية حياتهم بالأفعال والأقوال، لتستقيم وتُقَوِّمَ ما مال من سليم الطبع وصحيح العرف.

ولنا أن ننظر إلى الجوع بشكل عام كيف تعايش معه عرب الجاهلية واستعذبوه فصار وسمًا لحياتهم يُقَدَّمُ على الشبع في جدبهم وخصبهم، في شدتهم ورخائهم، مع توفر الطعام وغيابه، ويؤثرونه لجلبه الشرف وحسن الأحدوثة التي يسعى لها كل جاهلي، على اختلاف منازلهم ومراتبهم الاجتماعية، وإمكانياتهم الاقتصادية، لهذا ذكره معظم الشعراء والخطباء، وكان قرين الشريف من الخلال والعظيم من الأخلاق.

الخاتمة

إن البحث في أي ظاهرة شعرية يستلزم من الباحث أن يقدم ثمرة بحثه. وثمرة البحث لا تكون إلا بما توصل له الباحث من نتائج خلال دراسته لهذه الظاهرة أو تلك.

وفي هذا البحث استطاع الباحث -بفضل الله- الوصول إلى عدة نتائج نلخصها في الآتي:

١- إن الجوع بوصفه ظاهرة اجتماعية لها خطرها في كل زمان ومكان، كانت حقيقة العصر الجاهلي، ولصيقة بنفوس أهله من عرب الجاهلية أكثر من غيرها من الظواهر الاجتماعية، وبهذا شهد شعرهم.

٢- فرّقَ البحث بين لونين من الجوع ظهرا في حياة العرب. جوع بيئي فرضته الصحراء التي سكنوها عليهم بقلة مقوماتها، وندرة أمطارها وزروعها التي هي قوام حياة مواشيهم الضامنة لعيشهم في أوقات الجدب والسنين، وجوع لا يقع ولا يكون إلا وقت الخصب والنماء تعففًا من الجاهليين، وبعدًا عن التدني للمآكل التي أكثروا من ذم التكالب عليها ونبذوا الإكثار منها.

٣- تحقق وقوع الجوع في العصر الجاهلي من كثرة ضحاياه، إذ وجدنا أكثرهم من الأرامل والأطفال والضعفاء من الرجال، والجيران والجارات يدخلون في اللون الأول منه. في حين نجد الشرفاء وأصحاب المروءة، وذوي النفوس الأبية الجلدة يدخلون في اللون الثاني منه طلبًا للفخر والشرف.

٤- غذى الجوع نفوس العرب بعدد كبير من الخصال الحميدة. ففي كل باب من أبوابه يوظفه الجاهلي بما يعود عليه بالحمد والثناء، حيث نجده باعثًا على الكرم في كثير من الأحيان، بل لولاه لما وجد كرم قط، ولولاه لما افتخر العربي بكرم إطعامه وبذله، وبالصبر على فقده، وبعفته عن التدني إليه والتكالب عليه.

٥- أتاح موضوع الجوع أمامَ الشعراء مادة شعرية استغلها شعراء ذلك العصر في أغراض عديدة كالمدح، والرثاء، والهجاء، والوصف، والفخر، مما يدلل على أهمية الموضوع اجتماعيًا وشعريًا.

٦- أكّد البحث مدى وعي أفراد المجتمع الجاهلي بما يعتري مجتمعهم من مخاطر ومِحَن يجب التغلب عليها، فأسهمت العقلية الجاهلية بإيجاد حلول لمشكلة الجوع، شكلت درعًا واقيًا لهم من أضراره وخطره.

٧- أدى حرص عرب الجاهلية على دحر الجوع ودفعه عن الفئات الجائعة في ذلك العصر، إلى إماتة معايب اجتماعية كثيرة قد تقوض أركان القبيلة، وتزعزع منظومة مثلهم، كالوأد وبغاء المرأة، وهذا يمثل قمة من قمم العالم المثالي الذي سعى له عرب الجاهلية، أو معظمهم على أقل تقدير.

٨- خلص الجاهليون في تعاطيهم لموضوع الجوع إلى أمر مهم، نراه لب هذا البحث ولبابه، وهو الوصول لغور بعيد في أعماق النفس الإنسانية التي ميزت بعقلية متميزة فريدة بين الجوع وما يتبعه من هزال ونحافة، وبين البطنة وما يلحقها من قبح

وذمامة، فنفوها وما ينشأ عنها من قبيح القول والعمل عنهم، وذموها في أعرافهم وتقاليدهم، وحببوا إلى أنفسهم الجوع ونواتجه، لرؤيتهم ما ينتجه من مُثلٍ وقِيم تسهم في إصلاح نفوسهم ومجتمعاتهم.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

قائمة المصادر والمراجـــع

أولا: القرآن الكريم.

ثانيًا: المصادر:

١. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي، طبعة مكتبة مدبولي، ط٣، ١٩٩١م.

٢. أشعار النساء، لأبي عبد الله المرزباني، حققه وقدم له: د. سامي مكي العاني، وهلال ناجي، طبعة دار الرسالة، بغداد، ١٩٧٦م.

٣. الأصمعيات، للأصمعي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، طبعة دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.

٤. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، شرحه وكتب هوامشه: سمير جابر وآخرون، طبعة دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

٥. افتراق ولد معد، لابن الكلبي، جمع وتحقيق: أحمد محمد عبيد، طبعة هيئة أبي ظبي للثقافة والتراث، ط١، ٢٠١٠م.

٦. أمالي المرتضى، للشريف المرتضى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة الحلبي، ط١.

٧. البخلاء، الجاحظ، تحقيق: طه الحاجري، طبعة دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٤٨م.

٨. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، للألوسي، عني بشرحه وتصحيحه وضبطه: محمد بهجة الأثري، طبعة دار الشرق العربي، بيروت.

٩. البيزرة، لأبي عبد الله الحسن الفاطمي، نظر فيه وعلق عليه: محمد كرد علي، مطبوعات المجمع العلمي العربي، بدمشق.

١٠. التذكرة الحمدونية، لابن حمدون، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، طبعة دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

١١. التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، لأبي هلال العسكري، تحقيق: د. عزة حسن، طبعة دار طلاس، ط٢، ١٩٩٦م.

١٢. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تحقيق: د. عبد الله عبد المحسن التركي وآخرون، طبعة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

١٣. جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، تحقيق: علي البجاوي، طبعة نهضة مصر، القاهرة.

١٤. خزانة الأدب، للبغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة الخانجي، القاهرة.

١٥. ديوان ابن مقبل، تحقيق: د.عزة حسن، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٢م.

١٦. ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتعليق: د. م. محمد حسين، طبعة مكتبة الآداب، القاهرة.

١٧. ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف، القاهرة، ط٥.

١٨. ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق ودراسة: د. عبد الحفيظ السلطي، طبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧٤م.

١٩. ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

٢٠. ديوان بني بكر في الجاهلية، جمع وشرح: د. عبد العزيز نبوي، طبعة دار الزهراء، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م.

٢١. ديوان تأبط شرًا وأخباره، جمع وتحقيق: علي ذو الفقار شاكر، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٩م.

٢٢. ديوان حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره، صنعة: يحيى بن مدرك الطائي، دراسة وتحقيق: د. عادل سليمان جمال، طبعة المدني، القاهرة ط٢، ١٩٩٠م.

٢٣. ديوان الحادرة، حققه وعلق عليه: د. ناصر الدين الأسد.

٢٤. ديوان الحطيئة، تحقيق: نعمان أمين طه، طبعة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م.

٢٥. ديوان دريد بن الصمة الجشمي، جمع وتحقيق: محمد خير البقاعي، طبعة دار قتيبة، دمشق، ١٩٨١م.

٢٦. ديوان السليك بن السلكة، شرحه وقدم له: د. سعدي ضناوي، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

٢٧. ديوان الشنفرى، إعداد وتقديم: طلال حرب، طبعة دار صادر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م.

٢٨. ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: د.علي الجندي، طبعة الأنجلو المصرية، القاهرة.

٢٩. ديوان الطفيل الغنوي، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد، طبعة دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

٣٠. ديوان عامر بن الطفيل، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

٣١. ديوان العباس بن مرداس السلمي، جمعه وحققه: د. يحيى الجبوري، طبعة دار الجمهورية، بغداد، ١٩٦٨م.

٣٢. ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق وشرح: د. حسين نصار، طبعة الحلبي، القاهرة، ط١، ١٩٥٧م.

٣٣. ديوان عروة بن الورد، شرحه: د. سعدي ضناوي، طبعة دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٣٤. ديوان علقمة الفحل، تحقيق: لطفي الصقال ودرية الخطيب، طبعة دار الكتاب العربي، حلب، ط١، ١٩٩٩م.

٣٥. ديوان عمرو بن قميئة، تحقيق وشرح: حسن كامل الصيرفي، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الحادي عشر، ١٩٦٥م.

٣٦. ديوان عمرو بن كلثوم التغلبي، تحقيق: أيمن ميدان، طبعة النادي الأدبي الثقافي بجدة، ط١، ١٩٩٢م.

٣٧. ديوان عنترة، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

٣٨. ديوان المتلمس الضبعي، حققه وشرحه: حسن كامل الصيرفي، طبعة معهد المخطوطات العربية، ١٩٧٠م.

٣٩. ديوان المزرد بن ضرار العطفاني، تحقيق: خليل إبراهيم العطية، طبعة مطبعة أسعد، بغداد، ط١، ١٩٦٢م.

٤٠. ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، شرحه وضبط نصه: أحمد حسن بسج، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

٤١. الروض المعطار في خبر الأقطار، للحميري، تحقيق: د. إحسان عباس، طبعة مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤م.

٤٢. سمط اللآلي، لأبي عبيد البكري، تحقيق: عبد العزيز الميمني، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٦م.

٤٣. سنن ابن ماجة، لأبي عبد الله بن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة البابي الحلبي، القاهرة.

٤٤. شرح أشعار الهذليين، صنعة: أبي سعيد السكري، حققه: عبد الستار أحمد فراج، طبعة المدني، القاهرة.

٤٥. شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه: د. إحسان عباس، طبعة وزارة الإرشاد والأبناء، الكويت، ١٩٦٢م.

٤٦. شرح شعر زهير بن أبي سلمى، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، طبعة دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨١م.

٤٧. شعر بني تميم في العصر الجاهلي، جمع وتحقيق: د. عبد الحميد المعيني، طبعة نادي القصيم الأدبي، ط٧، ١٩٨٢م.

٤٨. شعر ضبة وأخبارها في الجاهلية والإسلام، صنعه: د. حسن عيسى أبو ياسين، طبعة عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ١٩٩٤م

٤٩. شعر طيئ وأخبارها في الجاهلية والإسلام، جمع وتحقيق ودراسة: د. وفاء فهمي السنديوني، طبعة دار العلوم، الرياض، ط١، ١٩٨٣م.

٥٠. شعر عبد الله بن الزبعرى، تحقيق: د. يحيى الجبوري، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.

٥١. شعر عمرو بن شأس الأسدي، تحقيق: د. يحيى الجبوري، طبعة دار القلم، الكويت، ط٢، ١٩٨٣م.

٥٢. شعر عمرو بن معد يكرب الزُبيدي، تحقيق: مطاع الطرابيشي، طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٤م.

٥٣. الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، طبعة دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٥٤. شعراء بني عقيل وشعرهم في الجاهلية والإسلام حتى آخر العصر الأموي، جمع وتحقيق: عبد العزيز بن محمد الفيصل، طبعة شركة العبيكان، الرياض،ط١، ١٤٠٨هـ.

٥٥. شعراء بني قشير في الجاهلية والإسلام حتى آخر العصر الأموي، جمع وتحقيق: د. عبد العزيز محمد الفيصل، طبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٧٨م.

٥٦. صحيح البخاري، للإمام البخاري، طبعة دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠٠٢م، ص٥٢٨.

٥٧. صفة جزيرة العرب، للهمداني، تحقيق: محمد علي الأكوع، طبعة مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٩٩٠م.

٥٨. طبقات الأمم، لصاعد الأندلسي، وضع مقدمته: السيد محمد بحر العلوم، طبعة المكتبة الحيدرية، النجف، ١٩٦٧م.

٥٩. عيون الأخبار، لابن قتيبة، طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة.

٦٠. القاموس المحيط، للفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥م.

٦١. الكامل في التاريخ، لابن الأثير، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

٦٢. لسان العرب، لابن منظور، حققه: نخبة من العاملين بدار المعارف، طبعة دار المعارف، القاهرة.

٦٣. مجمع الأمثال، للميداني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة البابي الحلبي، القاهرة.

٦٤. المحبر، لابن حبيب، اعتنى بتصحيحه: د. إيلزة ليختن شتيتر، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٦٥. مختار الصحاح، للرازي، طبعة مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦م.

٦٦. المخصص، لابن سيده الأندلسي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٦٧. مسند الإمام أحمد بن حنبل، حققه: شعيب الأرنؤوط وآخرون، طبعة مؤسسة الرسالة، القاهرة.

٦٨. معجم البلدان، لياقوت الحموي، طبعة دار صادر، بيروت.

٦٩. المعمرون والوصايا، لأبي حاتم السجستاني، تحقيق: عبد المنعم عامر، طبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٦١م.

٧٠. المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، طبعة دار المعارف، القاهرة، ط٨.

٧١. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي، تحقيق: د. علي دحروج، طبعة مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٧٢. موطأ الإمام مالك، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، طبعة مؤسسة الشيخ زايد الخيرية، الإمارات، ط١، ٢٠٠٤م.

٧٣. الميسر والقداح، لابن قتيبة، نسخه وعلق عليه: السيد محب الدين الخطيب، طبعة المطبعة السلفية، القاهرة، ط٢.

ثالثًا: المراجع:

٧٤. الإنسان في الشعر الجاهلي، د. عبد الغني أحمد زيتوني، طبعة مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ط١، ٢٠٠١م.

٧٥. تاريخ العرب قبل الإسلام، د.محمد سهيل طقوش، طبعة دار النفائس، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

٧٦. تاريخ الأدب العربي–العصر الجاهلي، د.شوقي ضيف، طبعة دار المعارف، القاهرة، ط١١.

٧٧. جزيرة العرب في القرن العشرين، حافظ وهبة، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٣٥م.

٧٨. جغرافية الجوع، لجوزيه دي كاسترو، ترجمة: زكي الرشيدي، طبعة دار الهلال.

٧٩. الجوار عند العرب في الشعر حتى العصر الأموي، د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك، طبعة دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م.

٨٠. جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، تأليف د. أحمد زكي صفوت، طبعة الحلبي، القاهرة.

٨١. دراسات في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، د. نعمان محمد جبران و د. روضة سحيم حمد آل ثاني، طبعة مؤسسة حماد، الأردن، ١٩٩٨م.

٨٢. حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، طبعة مؤسسة هنداوي، القاهرة.

٨٣. شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، جمع: بشير يموت، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، ٢٠٠٥م.

٨٤. الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د. يوسف خليف، طبعة دار المعارف، القاهرة.

٨٥. شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، د. أحمد كمال زكي، طبعة دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٩م.

٨٦. الصيد والطرد في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، د. عباس الصالحي، طبعة دار السلام، بغداد، ط١، ١٩٧٤م.

٨٧. الضيافة وآدابها في الشعر العربي القديم، د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك، طبعة مطابع الفرزدق، الرياض، ط١، ١٩٩٣م.

٨٨. الطرائف الأدبية، تصحيح وتخريج: د. عبد العزيز الميمني، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٩. العرب قبل الإسلام، د.خليل يحيى نامي، طبعة دار المعارف، القاهرة.

٩٠. فجر الإسلام، أحمد أمين، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ط١٠، ١٩٦٩م.

٩١. الفروسية في الشعر الجاهلي، نوري حمودي القيسي، طبعة مكتبة النهضة، بغداد، ط١، ١٩٦٤م.

٩٢. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، طبعة جامعة بغداد، ط٢، ١٩٩٣م.

٩٣. مهد العرب، عبدالوهاب عزام، طبعة مؤسسة هنداوي، القاهرة.

الفهرست

الموضـــــــــــــــــوع
المقدمة
التمهيد: جغرافية الجزيرة العربية
البـــــــــــاب الأول: الجوع و المجـــــــــــــــتمع
الفصل الأول: حقيقة الجوع في العصر الجاهلي
الفصل الثاني: نماذج جاهلية جائعة
الفصل الثالث: النظرة الجاهلية إلى الطعام
البـــــــــــاب الثاني: الجوع في نفس الفـــــــــــــــرد
الفصل الثالث: مكافحة الجوع في العصر الجاهلي
١- الغزو
٢- إطعام الطعام
٣- الصيد
٤- وسائل عارضة
الفصل الثاني: ذم البطنة

الفصل الثالث: مدح الجوع والهزال
الخاتمة
قائمة المصادر والمراجع
الفهرست